رواء

مجلة فكرية دورية

- العفو السياسي: توازن بين الرحمة وضمان الحقوق
- الخطاب النسوي المعاصر واستهدافه تفكيك مؤسسة الأسرة
- نظرية ولاية الفقيه: جذورها وتأثيرها على المجتمعات الشيعية
- الذكاء الاصطناعي: يُعيد صياغة مستقبل البحث الرقمي

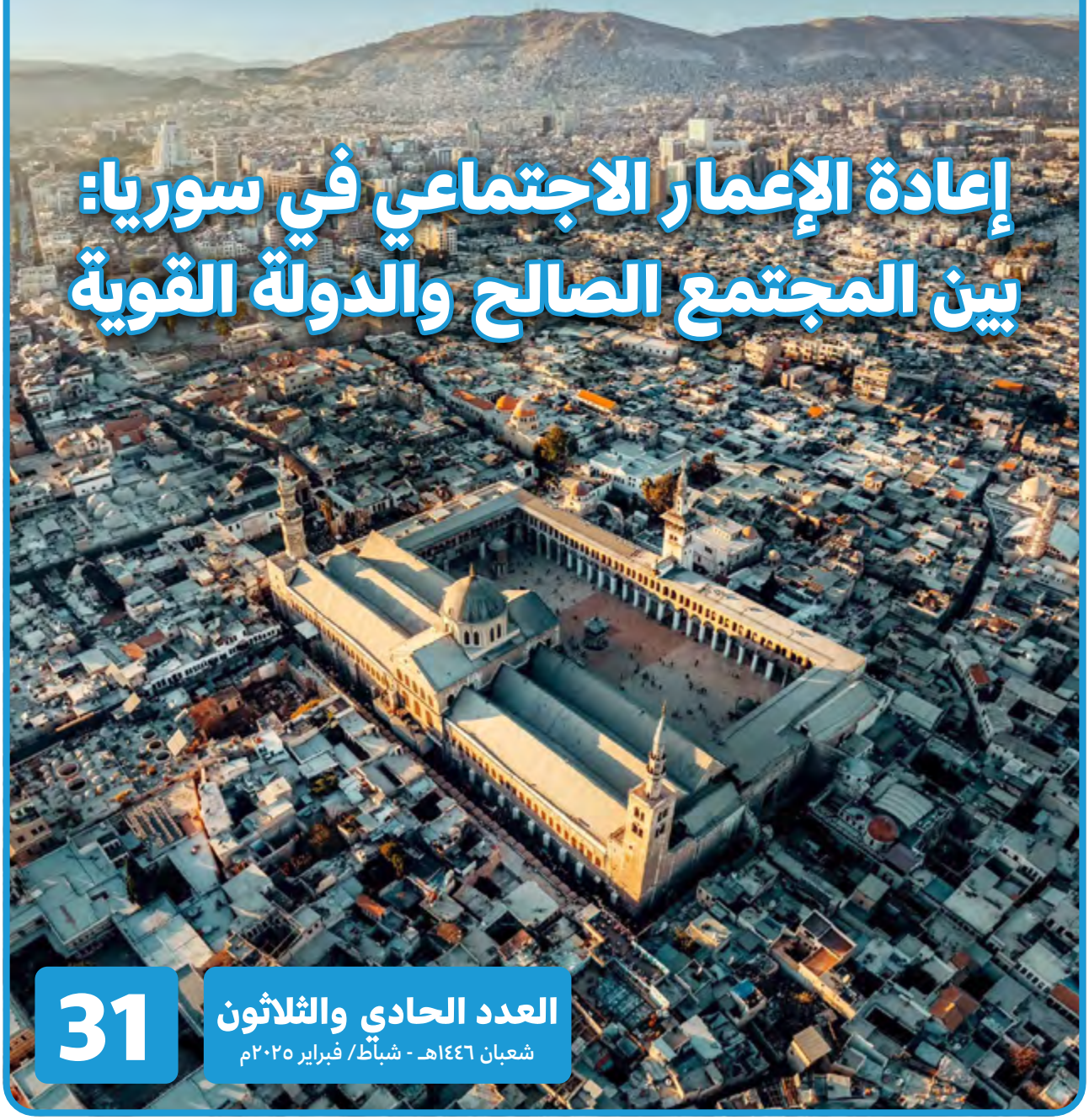

إعادة الإعمار الاجتماعي في سوريا: بين المجتمع الصالح والدولة القوية

31

العدد الحادي والثلاثون

شعبان ١٤٤٦هـ - شباط/ فبراير ٢٠٢٥م

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

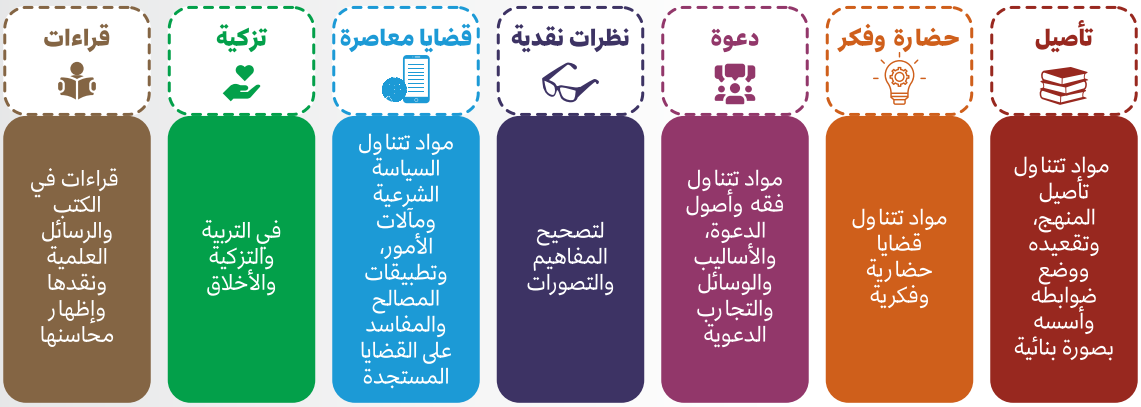

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

١ **الطريق إلى التمكين المنشود** ٢
الافتتاحية

٢ **رمضان.. مَغنم لا مَغرم** ٧
د. علي مدني رضوان الخطيب

٣ **العفو السياسي: توازن بين الرحمة وضمان الحقوق** ١٤
أ. أحمد محمد أبو سالم

٤ **الخطاب النسوي المعاصر واستهدافه تفكيك مؤسسة الأسرة** ٢٠
أ. محمد الغباشي

٥ **إعادة الإعمار الاجتماعي في سوريا: بين المجتمع الصالح والدولة القوية** ٢٧
أ. عامر المثقال

٦ **آثار منهج المقارنة في التربية والحث على الطموح** ٣٤
أ. هدى عبد الرحمن النمر

٧ **نظرية ولاية الفقيه: جذورها وتأثيرها على المجتمعات الشيعية** ٣٨
أ. عباس شريفة

٨ **من أقوال أهل العلم في الرافضة** ٤٥
أ. أحمد خضر المحمد

٩ **الذكاء الاصطناعي: يُعيد صياغة مستقبل البحث الرقمي** ٥٢
د. مصطفى يعقوب

١٠ **قيمة الإحسان: من العمل الفردي إلى الإصلاح المجتمعي** ٥٨
د. محمود حلمي

١١ **قراءة في كتاب: "خارطة الدم" لوليد الهويريني** ٦٢
أ. ياسمين الحايك

١٢ **بأقلام القراء** ٧٠
مجموعة من القراء

١٣ **أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُم** ٧٢
د.خير الله طالب

رواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

هيئة الشام الإسلامية

أسرة التحرير

رئيس التحرير
د. عماد الدين خيتي

سكرتير التحرير
أ. محمود درمش

فريق التحرير
أ. جهاد خيتي
أ. عبد الملك الصالح
أ. أحمد خالد أحمد

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

rawaamagazine

كلمة التحرير

الطريق إلى التمكين المنشود

فتحت دمشق، وسقط نظام الأسد، وزال الخوف، وتنفس الناس الحرية بعد الحرمان منها عقودًا من الزمن، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤-٥].

وبعد أن كان الناس في بلاد الشام ضعفاء مطاردين في شتى أنحاء الأرض، مضيَّقًا عليهم في شؤون دينهم ودنياهم؛ إذ بهم ينتقلون إلى عزّ النصر، وفسحة الحرّية، والوصول إلى سدّة الحكم والسلطة، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

الابتلاء بالنصر:

الابتلاء سنّة من سنن الله في الكون، يختبر بها خلقه، قال سبحانه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال عزّ وجلّ: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

ومن أعظم أهداف هذا الابتلاء على ما فيه من شدّة ومجاهدة، وصبر ومصابرة وتضحيات: تنقية القلوب، وتزكية النفوس، وتمحيص الصفوف، وتربية الأجيال؛ حتى تكون الأمة مهيئةً للدور العظيم الذي ستقوم به، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وكما أنّ الشدّة ابتلاء، فإنّ النصر ابتلاء أيضًا، بل ربما تكون الفتنة به أعظم؛ لأنّ النفوس أيام الشدّة تكون في ضيق وكرب، وقلّةٍ وخوف، وانقطاع الرجاء بالناس؛ فتقترب من ربّها وتلجأ إليه، وتزهد في الدنيا وتبتعد عنها، أمّا في حال الرخاء فإنّ النفوس لا تعيش هذه الضرورات، ولا تشعر بها، بل ترى أنّ من حلاوة النصر التمتّع بالدنيا وقد فتحت أبوابها، وأنّ ما حصل هو الغاية والنتيجة وقد حان وقت قطف الثمار وتعويض ما فات منها.

لذا فإن رسول الله ﷺ قد نبّه أصحابه إلى ذلك وهم في زمن شدّة فقال: (فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم)[1].

كما أنّ الشدّة ابتلاء، فإنّ النصر ابتلاء أيضًا، بل ربما تكون الفتنة به أعظم؛ لأنّ النفوس أيام الشدّة تكون في ضيق وكرب، وقلّةٍ وخوف، وانقطاع الرجاء بالناس؛ فتقترب من ربّها وتلجأ إليه، وتزهد في الدنيا وتبتعد عنها، أمّا في حال الرخاء فإنّ النفوس لا تعيش هذه الضرورات، ولا تشعر بها، بل ترى أنّ من حلاوة النصر التمتّع بالدنيا وقد فتحت أبوابها، وأنّ ما حصل هو الغاية والنتيجة وقد حان وقت قطف الثمار وتعويض ما فات منها

استخلاف مشروط:

إنّ الاستخلاف في الأرض والتمكين للمؤمنين ليس مجرّد مكافأة لهم على صبرهم وجهادهم، وليس هو نهاية المطاف، وإنّما هو تكليف جديد، غايته الابتلاء والاختبار بنوع آخر من العمل والجهاد، قال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]. قال سيد قطب: «الاستخلاف ليس مجرّد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنّما هو هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدّر لها في الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله. إنّ الاستخلاف في الأرض قدرةٌ على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد، وقدرةٌ على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرةٌ على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان»[2].

فما بعد النصر والتمكين جهد وعمل قد يفوق الجهد قبله، وإن اختلفت الطبيعة والمسارات، وعلى رأس ذلك:

١. نسبة هذا النصر لله تعالى وقوّته وفضله:

وأنّه سبحانه كما مَنَّ بالنصر فهو قادر على سلبه؛ مما يستدعي التواضع للخالق وعدم التكبّر على الخلق، وحفظ حدود الله، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ومَن لم يقم بحقّ هذه النعمة أُخذت منه كما أُخذت ممن كان قبله، مهما كانت قوته وجبروته في الأرض: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

ونسبةُ النصر لله والتعلّق به في طلبه أمر دقيق، مكانه في القلوب، ومتى اختلّ هذا الميزان جاءت النتيجة عكسية، لتثبت للعبيد أنّه ليس لهم من الأمر شيء، قال سيد قطب في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]: «ويوم حنين الذي هزموا فيه بكثرتهم ثم نصرهم الله بقوته، يوم أن انضمّ إلى جيش الفتح ألفان فقط من الطلقاء، يوم أن غفلت قلوب المسلمين لحظاتٍ عن الله مأخوذةً بالكثرة في العدد والعتاد؛ ليعلم المؤمنون أنّ التجرّد لله وتوثيق الصلة به هي عدّة النصر التي لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة في العدد والعتاد؛ وحين يخذلهم المال والإخوان والأولاد ... هذه هي المعركة التي اجتمع فيها للمسلمين -للمرة الأولى- جيش عدّته اثنا عشر ألفًا؛ فأعجبتهم كثرتهم، وغفلوا بها

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٥) ومسلم (٢٩٦١).
(٢) ينظر: في ظلال القرآن (٤/٢٥٢٩).

عن سبب النصر الأول، فردّهم الله بالهزيمة في أوّل المعركة إليه، ثم نصرهم بالقلّة المؤمنة التي ثبتت مع رسول الله ﷺ والتصقت به»[1]، بل حكى الله تعالى عما فعله بقارون حينما نسب الثروة التي امتلكها إلى نفسه، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، فكانت النتيجة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

> **كما مَنَّ الله سبحانه بالنصر فهو قادر على سلبه؛ مما يستدعي التواضع للخالق وعدم التكبّر على الخلق، وحفظ حدود الله، ومَن لم يقم بحقّ هذه النعمة أُخذت منه كما أُخذت ممن كان قبله، مهما كانت قوته وجبروته في الأرض**

٢. العبودية لله تعالى في جميع الشؤون:

ويشمل ذلك الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وتتحقق العبودية بتجنّب ما يخالف الشريعة في القوانين والأنظمة والمعاملات وفي سائر شؤون الدولة، ففيما أباحه الله -وهو كثيرٌ متّسعٌ- مندوحة عما حرم ونهى.

أما الخروج عن سبيل الله وكفر نعمته فهو مؤذن بخراب العمران وزوال الدولة، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

٣. الإصلاح في الأرض ومنع الفساد:

فهو من أهم غايات استخلاف الإنسان على الأرض، ويدخل في ذلك دخولاً أوليًا: إقامة الدين وشعائره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

(١) في ظلال القرآن (٣/١٦١٦-١٦١٧).

ومما يدخل في الإصلاح: إعادة العمران على أساس سليم، وإنجاز ما يتطلّبه من خطط وبنىً تحتية، وتأسيس أنظمة اقتصادية عادلة ينعم فيها الغني ولا يضام فيها الفقير، ويجد كلّ قاصدٍ للكسب مكانًا، واتخاذ الأسباب التي تقوّي الدولة وتمكّنها وترفع من شأنها، وفي ذلك يقول ابن خلدون نقلاً عن بعض الحكماء: «المُلك بالجند، والجند بالمال، والمال بالخراج، والخراج بالعمارة، والعمارة بالعدل، والعدل بإصلاح العمّال، وإصلاح العمّال باستقامة الوزراء»[(١)].

ومن ذلك التعاون على البر والتقوى، وترك الأخلاق التي عمل النظام البائد على ترسيخها في الناس طوال فترة حكمه، مثل: الأنانية والأثرة، وحب الدنيا وحب الذات وتقديم المصلحة الشخصية على المصلحة الجماعية، والسعي في تحصيل المنافع مهما كان حكمها، وأيًا كانت السبل الموصلة إليها، وإصلاح هذه الجوانب من استحقاقات المرحلة ومتطلبات التمكين.

مما يجدر التنبّه له أنّ مسؤولية الحاكم في إقامة العدل وإماتة الظلم كبيرة؛ فكلاهما يسري في الناس بحسب ما ينتهجه الحاكم من سلوك

٤. تحقيق العدل والأخذ على يد الظالم:

فإنّ أعظم فساد الطغاة: ظلمُ الناس، ولذلك من أوّل ما يجب على الحكّام إزاحة هذا الظلم عن كاهل الشعوب، ونشر العدل بينهم كما أمر تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

والظلم هلاك للبلاد والعباد، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]، وقال: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

ومما يجدر التنبّه له أنّ مسؤولية الحاكم في إقامة العدل وإماتة الظلم كبيرة؛ فكلاهما يسري في الناس بحسب ما ينتهجه الحاكم من سلوك، روى البخاري رحمه الله أنّ «امرأة سألت أبا بكر ﷺ، قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم. قالت: وما الأئمة؟ قال: أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى. قال: فهم أولئك على الناس»[(٢)].

وروى ابن كثير رحمه الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، بعدما أرسل إليه سعد بن أبي وقاص ﷺ غنائم الفرس على كثرتها وعظمتها، أن عمر لما نظر إلى ذلك قال: «إن قومًا أدوا هذا لأمناء»، فقال له علي بن أبي طالب ﷺ: «إنك عففت فعفّت رعيتك، ولو رتعت لرتعَت»[(٣)]. وهكذا جرت العادة وقامت السنن في سريان أخلاق وقيم الحكام في الشعوب.

٥. الحذر من التفرّق والاختلاف:

التفرق شرّ وفتنة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وهو طريق للفشل والضعف، وخسارة النصر وما ترتّب عليه، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وممّا يزرع بذور التفرّق والاختلاف: الدعوات الجاهلية القائمة على مخالفة شرع الله، والعنصرية المقيتة، والرويبضات، وغير ذلك.

وتقع مسؤولية التحذير من هذا التفرّق والاختلاف ومنع تضخّم آثاره حال حصوله -بالدرجة الأولى- على العلماء؛ فهم من أولي الأمر الذين تقتدي بهم العامّة، وهم قدوة لمن وراءهم، وهم أعلم بفقه الخلاف وضوابطه وآدابه.

التفرق شرّ وفتنة، وهو طريق للفشل والضعف، وخسارة النصر وما ترتّب عليه، وتقع مسؤولية التحذير منه ومن آثاره حال حصوله على العلماء بالدرجة الأولى؛ فهم من أولي الأمر الذين تقتدي بهم العامّة، وهم قدوة لمن وراءهم، وهم أعلم بفقه الخلاف وضوابطه وآدابه

(١) مقدمة ابن خلدون، ص (٥١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٣٤).
(٣) البداية والنهاية (١٧٣/٧).

> **إن التمكين المنشود هو قوة الدولة ومنعتها العسكرية والسياسية، وتخلصها من التخلف الثقافي والمعرفي، وتحقيق الاستقلال المادي وامتلاكها لمواردها، وبروزها في العلوم المادية بأنواعها، وهذا لا يتحقق للمسلمين إلا بالتمكين الشرعي الذي منه العدل وإقامة الدين**

القيام بشروط التمكين مسؤولية مَن؟

تمكين النصر وتثبيته مسؤولية الجميع، كلٌ بما يُحسنه ومن موقعه، مدنيًا كان أم عسكريًا، في موقع قيادي أو غير قيادي؛ لا سيما مع التوسع الكبير في الحكم، والحاجة الكبرى لإعادة الإعمار والنهوض بالبلد من الخراب والدمار الذي أورثه النظام البائد، وهو تحدٍ كبير لنجاح الثورة وأهلها.

إن التمكين المنشود هو قوة الدولة ومنعتها العسكرية والسياسية، وتخلصها من التخلف الثقافي والمعرفي، وتحقيق الاستقلال المادي وامتلاكها لمواردها، وبروزها في العلوم المادية بأنواعها، وهذا لا يتحقق للمسلمين إلا بالتمكين الشرعي الذي منه العدل وإقامة الدين.

وهو إحدى الضمانات المهمة لفاعلية الشام وأهله في المرحلة القادمة، وهو ما حرصت الدول الاستعمارية على سلبه منهم طوال العقود الماضية، مرةً بتقسيم المنطقة، ومرة بزرع الكيان الصهيوني، وأخيراً بتمكين عصابة مجرمة في سوريا وإعطائها الضوء الأخضر لاضطهاد الأكثرية من أهل السنة فيها، ثم تدمير مقدرات البلاد ونهب ثرواتها وتهجير أهلها، وجعل مدنها خراباً يتطلب إعمارها إمكانات كبيرة يتطلب توفيرها جهداً غير قليل.

وهذا يحتم المسؤولية على الجميع.

رمضان.. مَغنم لا مَغرم

د. علي مدني رضوان الخطيب (*)

رمضان فرصة للتقرب إلى الله تعالى وتحقيق التقوى، والفوز بالمغانم الكثيرة من الأجور العظيمة والفوائد الروحية والصحّية والاجتماعية المتعدّدة، كما أنّه دورة تدريبية فريدة على الصبر وتطوير الذات وتحقيق التغيير الإيجابي في النفس والمجتمع، وليس فيه شيء من المغارم المتوهّمة، وهذا المقال يشير إلى الكثير من هذه المعاني الرائعة لهذا الشهر الكريم.

مقدمة:

لو تُرك الإنسان وشأنه في الحياة يعبّ من ملذاتها وينال من أطايبها لكلّت جوارحه وتبلّد عقله وصار إلى الحيوان أقرب منه للإنسان؛ ومن ثَمّ كانت التربية القرآنية للمسلم تقضي بالحرمان لجزء من الوقت يترك فيه طعامه وشرابه وشهوته استعلاءً منه على رغبة النفس وجموحها، وترفّعًا عن الأهواء وتدريبًا على قوة الإرادة، ولولا ذلك لصرعه الشيطان عند أول التقاء، فأراحتنا الشريعة من هذا العنت بالصيام شهرًا من الزمان يقترب فيه المسلم بجمعية قلبه إلى ربه فيحيا من جديد؛ فتردّ إليه عافيته لعلّه يحصل من ربه على عناية ترفع البناية، أو كما قال الشاعر:

إنّ المقادير إذا ساعدت
ألحقت النائم بالقــائم

وإنّها لفرصة الفرص للمسلم أن يفترصها فيعضّ عليها بالنواجذ والأضراس؛ لأنّها غنيمة ثمينة وكنز مدّخر وعطيّة ناجزة، يقول ابن رجب الحنبلي: «السعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات، وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات؛ فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار وما فيها من اللفحات»(١).

والمؤمنون في كلّ أرجاء الأرض يترقّبون قدوم رمضان بوافر من الشوق، لعلمهم أنّهم ببلوغهم إياه يدركون حظّهم من الظفر والكسب ووفرة

(*) دكتوراه في الشريعة، جامعة طنطا.

(١) لطائف المعارف، لابن رجب، ص (٤٠).

الحسنات فضلاً عن المنح والهبات. قال مُعلى بن الفضل: «كانوا يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلّغهم رمضان، ويدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم. وقال يحيى بن أبي كثير: كان من دعائهم: اللهم سلمني إلى رمضان، وسلم لي رمضان، وتسلّمه مني متقبلاً»[١].

إنّ القيام بالشعائر الدينية بغاياتها الموضوعة من أجلها يصوغ الشخصية المسلمة صياغة مرضية فيتحقق على يديها النصر والفتح، قال هرقل لأبي سفيان بن حرب ﷺ قبل أن يسلم: «وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنّه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدميّ هاتين»[٢].

ومن المعروف سلفًا أنّ الإنسان خلق من عنصرين أساسين (مادة وروح)، أي قبضة قبضها الله تعالى من طين الأرض ثم نفخ فيها من روحه، فإذا غلّب الإنسان جانب المادة على جانب الروح وتثاقل إلى الأرض بهتت معاني الفضيلة لديه وخفت صوت الضمير عنده، وأمّا إذا غلّب جانب الروح على حياة المادة أصيب بالرهق والتعب فأتعب جسمه وقوض بنيانه، فما هكذا تورد الإبل.

بيد أنّ التوسط والاعتدال يضبط المسار ويسير بالنفس سيرها الطبيعي في أحسن كمالات الفطرة الإنسانية ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

إنّ القيام بالشعائر الدينية بغاياتها الموضوعة من أجلها يصوغ الشخصية المسلمة صياغة مرضية فيتحقق على يديها النصر والفتح

لا غُرم في رمضان:

كلّما أقبل رمضان يثير البعض مغارم يرون أنّها ناتجة عن صيام هذا الشهر، من ذلك:

ضعف إنتاجية العامل عن سائر الشهور:

والحقّ أنّها شبهة مردود عليهم، لأنّهم ربما نظروا إلى البعض ممن يصومون شكلاً بغير مضمون وعادة لا عبادة، فمثل هؤلاء لا يصومون الصوم الحقيقي الذي يدفع للإنتاج والعمل والمراقبة.

الصيام -كما هو مشاهد ومعلوم- يربّي في الصائم الصبر والمصابرة، وقوة الاحتمال، والدافعية للجهاد والعمل لا إلى الركون والدعة؛ ففيه ترويض للنفس على التحمّل لساعات طويلة من الجوع والظمأ مما يعطيه القوّة والمدد لأن ينتصر في كلّ مناحي الحياة المختلفة

فالصوم الحقيقي فيه مراقبة ذاتية تختلف عن أي عبادة أخرى؛ فهم يضعون نصب أعينهم حديث: (إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[٣]، والصوم بهذا المعنى يزيد في الإنتاج بسبب الرقابة الذاتية المتمثّلة في يقظة الضمير الإنساني الذي يكون في رمضان في أكمل حالاته، ومن ناحية أخرى فإنّ الصوم يقلّل من سمنة الجسد التي تؤدّي إلى الكسل عن الحركة فهي مدعاة للفراش والدعة، بمعنى أنّ جسد الصائم يكون أكثر رشاقة وحيوية مما يساعده على الإنتاج والعطاء.

والصيام كما هو مشاهد ومعلوم يربّي في الصائم الصبر والمصابرة وقوة الاحتمال والدافعية إلى الجهاد والعمل لا إلى الركون والدعة؛ ففيه ترويض للنفس على التحمّل لساعات طويلة من الجوع والظمأ مما يعطيه القوة والمدد لأنْ ينتصر في كل مناحي الحياة المختلفة.

فهو محطة انطلاق لقوى الجسد مجتمعة لمواجهة كلّ ضغوطات الحياة، لهذا فرض الصوم في ذات العام الذي فرض فيه القتال، فكانت كل انتصارات المسلمين في رمضان (بدر الكبرى، وفتح مكة، والقادسية، والأندلس، والزلاقة، وبلاط الشهداء، وعين جالوت، وحطّين، والعاشر من رمضان).

والواقع يقول: إنّ الصائم يستغني في عمله عن وجبة الغداء وهذا يوفر وقتًا إضافيًا للعمل وزيادة الإنتاج، ثم إنّه يمتنع عن التدخين وفي هذا ترشيد للبيئة وعدم ضياع الوقت والمال، فإذا أضفنا إلى ذلك حسن المراقبة الذاتية بتجويد العمل وتحسينه

(١) لطائف المعارف، ص (١٤٨).
(٢) أخرجه البخاري (٧).
(٣) أخرجه أبو يعلى (٤٣٨٦).

وإتقانه كان ذلك حسنًا، وحبذا لو استعان على ذلك بقيلولة النهار تعينه على طاعة ربه بالليل مع تخطيط يومي منظّم وتحديد الأوليات وإنجاز المهام العاجلة في ذروة النشاط العالي.

وقد يقول البعض: إنّ الصيام يؤدّي إلى تغيير لمسار الروتين اليومي الذي اعتدنا عليه وهذا بدوره ربّما يربك حساباتنا بتغيير مواعيد النوم والاستيقاظ والطعام والسهر:

ونقول: إنّ الروتين الذي نكون عليه قبل رمضان ربّما يفقدنا شهيتنا في بعض الأحيان؛ لأنّه بمثابة القوالب الجامدة، فما الضير لأن نتخفف من ذلك بعض الوقت يتغير فيها ذلك النمط من خلال تغيير ما بواقع النفس؟ كأنّ الإنسان يحتاج إلى صدمة قوية تغيّر هذا التحكم والثبات المكرور والمعتاد في أيّامه.

وعندما يتحرّر الصائم من أسر عاداته اليومية والتي كانت تتحكم فيه قبل الصيام؛ سوف يتحول خلال أيام معدودات إلى شخص آخر يملك إرادة صلبة قادرة على ضبط كلّ نوازع النفس ورغباتها، فلا تستقر إلا حيث يريد، فنكون -وبحق- قد ارتقينا إلى معالي الأمور بعد أن تعلّمنا قيمة الوقت وضبط بوصلة الحياة على ما ينفعنا، وهذا سيعود علينا بتغذية راجعة مستقبلاً. والصيام يربّي ملكة الاستعلاء على كلّ ضرورات الجسد الإنساني واحتمال مشاكل الحياة وآلامها رغبة فيما عند الله (إنك لَن تدَع شيئًا للهِ إلا بدَّلك اللهُ به ما هو خيرٌ لكَ منه)[1]، قال ابن القيم رحمه الله: «وقولهم: مَن ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه: حقّ، والعوض أنواع مختلفة؛ وأجلّ ما يعوّض به: الأنس بالله ومحبته، وطمأنينة القلب به، وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه تعالى»[2].

في رمضان نخرج من مألوف العادات والطباع، فنغير عادة الجسد في الطعام والشراب والنوم وهو تغيير إيجابي؛ ففيه إراحة للجسد، وإحلال طاقات روحية ممتدة فيه، فضلاً عن تغيير إيجابي من نوع آخر؛ مثل ترك التدخين والإقلاع عن المعصية. والصوم كما يقول ابن رجب الحنبلي: «هو مجرّد ترك حظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها لله عز وجل، ولا يوجد ذلك في عبادة أخرى غير الصيام»[3].

> **عندما يتحرر الصائم من أسر عاداته اليومية والتي كانت تتحكم فيه قبل الصيام سوف يتحوّل خلال أيام معدودات إلى شخص آخر يملك إرادة صلبة قادرة على ضبط كلّ نوازع النفس ورغباتها، فلا تستقر إلا حيث يريد، فنكون -وبحقّ- قد ارتقينا إلى معالي الأمور بعد أن تعلّمنا قيمة الوقت وضبط بوصلة الحياة على ما ينفعنا**

ثمرات الصيام:

إنّ الثمرات والمعارف والقناعات والمهارات والنفحات التي ينالها المسلمون من صيام رمضان كثيرة لا تحصى، وينبغي التأكيد عليها والتذكرة بها كلّما جاء أوانها؛ لأنّ الإنسان ينسى ويتقلّب قلبه ما بين مدّ وجزر وقوة وضعف ونشاط وفتور، ومن ثمّ ينبغي التأكيد على جملة من الفوائد والمكاسب يضعها المسلم نصب عينيه كلّما أقبل عليه شهر الصوم، ونجملها في ثلاث ركائز أساسية على النحو التالي:

أولاً- زيادة الرصيد الأخروي ويتمثّل ذلك فيما يلي:

١. شفاعة الصيام لصاحبه في القبر:

كما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: (إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قِبَل رأسه فتقول الصلاة: ما قِبَلي مدخلٌ، ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قِبَلي مدخلٌ، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قِبَلي مدخلٌ، ثم يؤتى من قبل رجليه فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قِبَلي مدخلٌ)[4].

(١) أخرجه أحمد (٢٣٠٧٤).
(٢) الفوائد، لابن القيم، ص (١٠٧).
(٣) لطائف المعارف، ص (٢٧٢).
(٤) أخرجه ابن حبان (٣١١٣).

٢. شفاعة الصيام لصاحبه يوم القيامة:

عن عبد الله بن عمرو ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: (الصيامُ والقرآنُ يشفعانِ للعبدِ يومَ القيامة، يقول الصيام: أي ربِّ إنِّي مَنعْتُهُ الطعام والشهواتِ بالنهار فشفِّعْنِي فيه، ويقول القرآن: منعتُهُ النوم بالليل فشفعني فيه، فيَشْفَعان)[١]، والصيام هنا يشمل صيام الفرض والتطوّع، الصيام والقرآن يطلبان من الله تعالى قبول وساطتهم وشفاعتهم للصائم القائم، ثم إنّك لتجد ارتباطًا واضحًا بين الصيام والقرآن؛ لأنّ نزول القرآن كان في رمضان في ليلة القدر ليكون الصائم القائم الذي يتلو القرآن له من القدر والمنزلة بحسب جهده ونشاطه، وذلك ميدان سباق شمّر فيه المشمّرون وتنافس المتنافسون.

٣. خصوصية الجزاء:

بمعنى أن يعامل الصائم معاملة مميّزة في الأجر والإكرام؛ فالصائم قد ظمأ في النهار وأصابه العطش الشديد في اليوم الحار فكان جزاؤه من جنس عمله، وقد روى سهل بن سعد الساعدي ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: (إنّ في الجنَّة بابًا يُقال له الرَّيان، يدخلُ منه الصَّائمون يومَ القيامة، لا يدخلُ منه أحدٌ غيرُهم، يُقال: أين الصائمون، فيقومون، لا يدخلُ منه أحد غيرُهم، فإذا دخلوا أُغلق، فَلم يدخل منه أحد)[٢]، والرَّيان مأخوذ من الريّ والذي هو نقيض العطش الذي لحق بالصائم في رمضان، قال ابن حجر رحمه الله: «وهو مناسب لحال الصائمين، وسيأتي أنّ مَن دخله لم يظمأ، قال القرطبي: وقد اكتفي بذكر الريّ عن الشبع لأنّه يدل عليه من حيث إنّه يستلزمه. قلت: أو لكونه أشقّ على الصائم من الجوع»[٣]، وهذا إكرام شديد لهم بهذه الخصوصية حتى لا يتزاحم على الباب إلا من توفّرت فيه الشروط المستحقّة لدخوله وهم يسمعون النداء (أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق، فلم يدخل منه أحد)، وتميّزهم عن غيرهم فيه دلالة على علو مقامهم وارتفاع درجاتهم حيث ينادى عليهم من بين هذه الجموع الغفيرة في أرض المحشر، كما لو كنت قادمًا من سفر وتزاحم الناس لأخذ حقائبهم وإنهاء إجراءات عودتهم وإذا بهم ينادون على اسمك من مكبرات الصوت ويصحبونك للدخول من ممر خاص يمر منه الملوك والأمراء وكبار الزوار ثم ينهون إجراءات سفرك بسهولة ويسر.

ثانيًا- علاج لأمراض النفس الجسدية والروحية:

ويتمثل ذلك فيما يلي:

١. منافع صحية وجسدية:

بالصوم تتحسن الصحة العامة للصائم؛ حيث الوقاية من كثير من الأمراض التي تسببها كثرة الطعام والشراب، يقول الطبيب العالمي الحائز على جائزة نوبل في الطب والجراحة (ألكسيس كاريل): «لقد فرضت جميع الأديان الصوم لما له من فوائد جمة؛ لأنّ الحرمان من الطعام يثير أولاً الشعور بالجوع، كما أنّه يثير أحيانًا بعض التنبيه العصبي، وأخيرًا يحسّ الإنسان بالضعف، ولكنّه أيضًا يجدد ظواهر معينة مخفية أهم من ذلك بكثير، فإنّ سُكر الكبد والدهن المخزون أسفل الجلد يتحركان، وكذلك بروتينات العضلات والغدد، وتضحي جميع الأعضاء بموادها لكي يظل الدم والقلب في حالة طبيعية؛ إذ إنّ الصيام ينقي أنسجتنا ويعدّلها كثيرًا»[٤].

وقد ثبت أنّ أكثر أمراضنا بسبب تخمر الأمعاء؛ لذا فالصوم يغسل هذه الأحشاء ويطهّرها ويعقّمها ومن ثَمّ يستفيد الصائم بالحصول على صحة جيدة خالية من أمراض الكوليسترول والضغط والسكري، فضلاً عن تقوية جهاز المناعة لديه، وهذا كله يحدث له استقرارًا نفسيًا واطمئنانًا روحيًا يؤدي إلى سلامة بدنه، والسلامة لا يعدلها شيء على الإطلاق.

٢. منافع نفسية وروحية:

وهي حالة التألّق الروحي الذي يشعر به الصائم حال إتمام صومه وانتصاره على كلّ مغريات الطين والأرض، تراه فتلمس الفرحة وهي تطل من عينيه، عن أبي هريرة ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: (للصائمِ فرحتان: فرحةٌ حين يُفطر، وفرحةٌ

(١) أخرجه أحمد (٦٦٢٦).
(٢) أخرجه البخاري (١٨٩٦).
(٣) فتح الباري (١١١/٤).
(٤) الإنسان ذلك المجهول، ص (١٧٨).

حين يلقى ربَّه)[١]، لقد استمد قوة نفسية بقهره للشهوات والغرائز الجامحة، فلم تستذلّه شهوة ولم يسفل لنزوة، ثمّ إنّ تدريبه على الفضائل اليومية المتكرّرة في رمضان يجعلها خلقًا راسخًا تصدر عنه جميع الأعمال -بعدما ضبط بوصلة يومه على حبّ الفضيلة والتمسك بها- في عملية دؤوبة من المراقبة والمحاسبة والمشارطة بأن لا يسخط ولا يسبّ أو يشتم أو يغتاب أحدًا؛ ليحافظ على مكتسبات يومه، عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم)[٢]، وفي هذا نهي واضح وصريح عن ترك الفحش في الأقوال والأفعال وعن الصخب والصياح والخصام واللجاج.

٣. منافع اجتماعية:

وتتمثل في تقوية العلاقات بين الناس -لا سيما الأقارب- وصلة الرحم والتزاور، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رعاية الضعفاء والفقراء من أهل الضر والمسكنة وتفقدهم وتقديم الطعام والمال والكسوة لهم وسد حاجتهم، وأسوتنا في ذلك رسول الله ﷺ الذي كان (أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان ... كان أجود بالخير من الريح المرسلة)[٣]، ولك أن تتأمّل هذا المعنى الدقيق جدًا، إذ الريح المرسلة ريح فيها خير ونفع لبني الإنسان حيث نزول الغيث وإحياء الأرض بعد موتها، وكذلك الصدقة على هؤلاء المساكين وذوي الحاجة، إذ يكفيهم حاجتهم وينفعهم كما تنتفع الأرض الموات بماء المطر الذي يحييها.

والعقلاء يدركون معنى البذل والجود في رمضان؛ فيحرصون على مضاعفة الأجر بتفطير الصائمين؛ وذلك بأن يُفَطّر صائمًا عملاً بالحديث الذي رواه زيد بن خالد الجهني ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من فطّر صائمًا كان له مثل أجره، غير أنّه لا ينقص من أجر الصائم شيئًا)[٤]، وهكذا يعرف رمضان بالتعاطف والتراحم والإحسان؛ فتصبح الأمّة في مجموعها كالجسد الواحد، وبغير الإحسان لن يُزار مريض أو يشيّع ميت، ولن يغاث ملهوف ولا يتم صلح ولا يصدر العفو عن الجاني، بدون الإحسان تتجمد الحياة على كوكب الأرض وتصبح كئيبة مليلة يتقوقع المرء فيها على نفسه فيأكل نفسه بنفسه، وتضيع فكرة الجسد الواحد ويتوه الإنسان بين الزحام والركام، وفي الحديث الصحيح: (ترى المؤمنين في تراحُمِهم وتوادّهم وتعاطُفهم كمَثَل الجسد، إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائرُ جسده بالسَّهر والحمى)[٥]، وقال القزويني: «الصدقة برهان على جزم المتصدق بوجود الآخرة وما تتضمنه من المُجازاة؛ لأنّ المال محبوب للنفوس المتصفة بالخواص الطبيعية، فلا يقدر على بذل المال ما لم يصدق بانتفاعها فيما بعد بثمرات ما يبذله وفوزها بالعوض وحصول السلامة من ضرر متوقع بسبب فعل قرنت به عقوبة»[٦].

> **«الصدقة برهان على جزم المتصدّق بوجود الآخرة وما تتضمنه من المُجازاة؛ لأنّ المال محبوب للنفوس المتصفة بالخواص الطبيعية، فلا يقدر على بذل المال ما لم يصدّق بانتفاعها فيما بعدُ بثمرات ما يبذله، وفوزها بالعوض، وحصول السلامة من ضرر متوقّع بسبب فعل قرنت به عقوبة»**
>
> القزويني

ثالثًا- رمضان وتطوير الذات:

١. بداية لتصحيح المسار:

رمضان استئناف لحياة جديدة قد تكون هي الفرصة الأخيرة والشوط النهائي من عمر الزمان، وإنّها لفرصة لأن تكون واحدًا ممن أدركته عاصيًا كنت أم صالحًا، هو بداية عهد جديد من بناء الثقة في النفس بتحقيق توبة جديدة وقاطعة لا نكوص فيها، فمن لا يصلي قبل رمضان تراه يعزم على الصلاة، ومن لا يقرأ القرآن طول العام تراه يحرص على التلاوة ولو بالنزر اليسير، فإن لم يقرأ يستمع؛ ليشبع روحه التائهة وقلبه المضطرب، ومن كان بخيلاً قبل رمضان ربما يبسط يده في

(١) أخرجه البخاري (٧٤٩٢).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٤).
(٣) أخرجه البخاري (١٩٠٢).
(٤) أخرجه الترمذي (٨٠٧).
(٥) أخرجه البخاري (٦٠١١).
(٦) فيض القدير، للمناوي (٢٩١/٤).

رمضان مواساة وشفقة، ومن يتعامل بالربا أو الميسر أو شرب الخمر يكفّ عن ذلك في رمضان، إذن رمضان هو ميلاد جديد لكثير من الناس الذين يدخلون في هذا النسك ليغيروا أنفسهم فيندمون على أيام الغفلة والضياع، رمضان يمثّل بداية قوية لينقذك من الضياع والشتات؛ لأنّ فيه محوًا للسيئات وزيادة في الحسنات ورفعًا في الدرجات.

٢. تهذيب النفس المسلمة وضبطها والوصول بها إلى مرتبة التقوى:

وهي الغاية الحقيقية من وراء الصوم لتكون هذه التقوى هي الميزان لجميع الأعمال، وتصبح سجية لأهل الإيمان بما تعنيه من المراقبة الدائمة والإحسان المتجدّد في العبادة والمعاملة والأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وتعليق الصيام على التقوى تعليق الشرط بمشروطه فإذا لم يكن صيام حقيقي فلن يكتمل مفهوم التقوى ولن تنتج آثارها، وهل التقوى في مفهومها الخاص إلا مراقبة الملك سبحانه والإحسان في العبادة والمعاملة؟ فيتحرّك القلب وتنتشي الجوارح فرحة جزلة وهي تقوم على الخدمة والسعي والمثابرة؛ لأنّ العبادة في رمضان تختلف كلّية عن بقية العبادات في طريقة الأداء وفي المدة الزمنية؛ فجميع العبادات يراك الناس حال أدائك لها: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١]، و(الحجُّ عرفةُ)[١]، و﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، أمّا شعيرة الصوم فلا يراك أحد حال امتناعك عن الطعام والشراب ولا يقف الآخرون على حقيقة صومك، إضافة إلى أنّ الأداء السلبي في العبادة غالبًا لا يخالطه الرياء.

ومن الطبيعي جدًا أن يكون الصائم القائم الذي حمل نفسه على طاعة الله فأحياها بالعبادة وهذّبها بالطاعة ونوّرها بالقرآن في غاية القرب؛ ينعم بلطف الله به وتأييده له ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولما كان الصفاء النفسي والرقي الروحي من غايات الصيام النبيلة؛ كان الاعتكاف في نهاية الشوط في العشر الأواخر مؤكدًا لهذا المعنى من حضور القلب وصفائه ورقته متبتلاً منقطعًا إلى الله صارفًا نفسه عن كلّ ما يتعلّق بجواذب الأرض، فيكون أقرب إلى الملائكية.

٣. اكتشاف الذات:

ويكون ذلك عن طريق استحضار معاني القوة النفسية ومفرداتها من الصبر والإرادة والتحدّي ومعرفة قدراتك الحقيقية، وكيدك للشيطان بعدما تأكدت بطريقة عملية أنّك قويّ وأنّ شيطانك ضعيف، وأنّك انتصرت عليه وغلبته في معركة متواصلة استمرت ثلاثين ليلة أبدعت فيها في مواطن الخير وقدّمت فيها نفسك للعالم لأن تكون بحقّ خليفة في الأرض، وقد استقر في خلدك أنّ كيد الشيطان ضعيف، ولطالما دخل عليك بالتحزين والتخويف والتزيين والإغواء والوسوسة، لكنّك عرفتَ فلزمتَ فصرختَ في وجهه قائلاً:

فدع هواها وصغ للمجـد قـافية
فالمجد يصنعه الضرغامة البطل

فلا ريب ولا شكّ في كون رمضان معسكرًا منضبطًا تتهذب فيه أخلاقنا وينصلح حالنا، وإنّ ضبط البوصلة بالاعتياد على أمور غير عادية من الإمساك عن الطعام والشراب والنكاح كي نتحمل ما يقع بنا بعد رمضان في الظروف العادية، فهو تغذية راجعة نحصل عليها بالتقسيط المريح، فيتغير حالنا يومًا بعد يوم، فإذا انتهينا من صيام رمضان أتبعناه بست من شوال لتصير التقوى واقعًا معاشًا كجزء لا يتجزّأ من حياتنا اليومية في عبادة أو معاملة، لقد تحررتْ أنفسنا من الرقّ والأسر لشهواتنا وقويتْ إرادتنا بتحمّل ساعات الجوع والعطش، وليكون لنا كلّ يوم دعوات مستجابة (ثلاثة لا تردُّ دعوتُهم... والصائمُ حتى يفطر)[٢].

العبادة في رمضان تختلف كلّية عن بقية العبادات في طريقة الأداء وفي المدة الزمنية؛ فجميع العبادات يراك الناس حال أدائك لها، أمّا شعيرة الصوم فلا يراك أحد حال امتناعك عن الطعام والشراب، ولا يقف الآخرون على حقيقة صومك، إضافة إلى أنّ الأداء السلبي في العبادة غالبًا لا يخالطه الرياء

(١) أخرجه الترمذي (٨٨٩) والنسائي (٣٠١٦).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٩١٥) وابن ماجه (١٧٥٢).

رابعًا- الفوز بالغنيمة الكبرى بإدراك فضل ليلة القدر:

هذه الليلة المباركة يتحدّد فيها مصيرك ومستقبلك لعام قادم؛ ففيها نسخ الآجال والأعمار، فيها السعادة أو الشقاء، يقول ابن كثير: «في ليلة القدر يفصَّل من اللوح المحفوظ إلى الكتَبة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها»[١]، وهذه الليلة هي ثمرة من ثمرات هذا الشهر الفضيل حيث البركة والمنزلة وعلو الشأن والسلامة والخير والظفر والتوفيق والعطاء والمدد والفيض والجود والإعانة والإثابة والهداية والستر والتقدير والنور والسداد والرشاد والعفو والعافية، وليس ذلك فقط، بل الحصول على المنزلة والمكانة والقدر بالعلم والعبادة الصحيحة؛ فهما طريق الريادة والسعادة وبهما يرفع القدر وتعلو المنزلة وترتفع المكانة، وسورة القدر هي الثمرة والجائزة، وهي تقع بين سورتي العلق والبيّنة، ففي سورة العلق يكون العلم والتعلم والبحث والنظر، وفي البيّنة الاتباع والاقتداء والأسوة، كأن القدر والمنزلة لا تنال إلا برصيد من العلم والربانية وفق منظومة قيمية صحيحة، وهذا واضح بيّن وضوح الشمس في رابعة النهار ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢]، وأهل الفضل يتلمسون مواطن الخير من مظانها لرغبتهم وحرصهم على نوال الزيادة من كل خير قسمه الله تعالى على عباده، وهم يعتقدون جزمًا أنّ فوات الخير عنهم في هذا الشهر الكريم غبن وتعثّر وضياع وشتات وألم وانحسار، فلا يستقيم لهم عيش ولا يصفو لهم زمان إلا أن تتنزل عليهم غمرات من رحمة الله تحوطهم وتحويهم، فيتدفق الخير الإلهي عليهم.

العمل والطاعة في هذه الليلة خير من ألف عمل ومن ألف طاعة ومن ألف عبادة في غيرها، حدّث ولا حرج مما يعني زيادة الخير وفرصة لإطالة العمر الإنتاجي؛ فلو أنّ رجلاً أو امرأة أدرك ليلة القدر فأحياها بالطاعة مدة عشرين سنة فكأنّه عاش ألفًا وستمائة وثمانين عامًا، إذن هي لحظة فارقة في حياة المسلم ونقطة بداية لخير قادم، وهي ليلة النصيب كما جاء عن جويبر قوله: «قلت للضحاك: أرأيت النفساء والحائض والمسافر والنائم لهم في ليلة القدر نصيب؟ فقال: كلّ من تقبل الله عمله سيعطيه نصيبه من ليلة القدر»[٢].

والسؤال: ماذا ينبغي لنا فعله في ليلة القدر؟

١. أولاً- تحري الليلة والتماسها والحرص على إدراكها في العشر الأواخر من رمضان:

وقد بوّب البخاري بابًا بعنوان: تحرّي ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر. قال ابن حجر: «في هذه الترجمة إشارة الى رجحان كون ليلة القدر منحصرة في رمضان، ثم في العشر الأخير منه، ثم في أوتاره لا في ليلة منه بعينها»[٣]، ومن هنا نقول: ينبغي لمن أراد أن ينال الحظوة من هذه الليلة أن يجتهد بجد ومثابرة في العشر كلّها، وهذا الذي كان يفعله النبي ﷺ: (كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره)[٤].

٢. ثانيًا- القيام والدعاء:

«(من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه)[٥]، وقيامها إنّما هو إحياؤها بالتهجد فيها والصلاة، وقد أمرَ عائشةَ بالدعاء فيها أيضًا، قال سفيان الثوري: الدعاء في تلك الليلة أحبّ إلي من الصلاة، قال: وإذا كان يقرأ وهو يدعو ويرغب إلى الله في الدعاء والمسألة لعلّه يوافق، ومراده: أنّ كثرة الدعاء أفضل من الصلاة التي لا يكثر فيها الدعاء، وإن قرأ ودعا كان حسنًا»[٦].

وأفضل الدعاء ما كان جامعًا لخيري الدنيا والآخرة كما في حديث عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمتُ أي ليلةٍ ليلةُ القدر ما أقول فيها؟ قال: (قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)[٧]، قال النووي: «ويُستحب أن يُكثر فيها من الدعوات بمهمّات المسلمين، فهذا شعار الصالحين وعباد الله العارفين»[٨].

(١) تفسير ابن كثير (٢٤٦/٧).
(٢) لطائف المعارف، ص (٣٤١).
(٣) فتح الباري (٢٦٠/٤).
(٤) أخرجه مسلم (١١٧٥).
(٥) أخرجه البخاري (١٩٠١) ومسلم (٧٦٠).
(٦) لطائف المعارف، ص (٣٥٩).
(٧) أخرجه الترمذي (٣٥١٣) وابن ماجه (٣٨٥٠).
(٨) الأذكار، للنووي، ص (١٩١).

العفو السياسي: توازن بين الرحمة وضمان الحقوق

أ. أحمد محمد أبو سالم (*)

بعد انتصار الثورات والقضاء على الأنظمة المجرمة يبقى السؤال عن كيفية التعامل مع أعوان هذه الأنظمة وأنصارها، فمع القناعة بضرورة إيقاع العقوبات بالمجرمين لتحقيق العدالة، تطرح قضية العفو لتحقيق الاستقرار في المجتمع وضمان العبور لمستقبل أفضل للبلاد، وهنا تبرز مشكلة كيفية تحقيق التوازن بين الرحمة وضمان الحقوق، وفي هذا المقال الحديث عن أحد أنواع العفو وهو العفو السياسي، واستعراض الضوابط التي يجب مراعاتها لضمان أن يكون أداة للإصلاح والاستقرار المجتمعي، لا سببًا لضياع حقوق المظلومين.

مدخل لبيان مفهوم العفو السياسي:

العفو السياسي مصطلح يقصد به: قرارٌ ممن بيده إدارة شؤون الدولة أو مَن يقوم مقامه، بإسقاط العقوبة عمن ثبتت في حقه بلا مقابل، فالعقوبة تصبح في حقّ مَن صدر في حقه عفوٌ عامٌ كأن لم تكن.

وغالبًا ما يُنسب العفو إلى رأس الهرم الأعلى في الدولة الذي يصدر منه العفو، فيقال: عفو رئاسي أو عفو ملكي أو أميري، أو ما شابه ذلك.

العلاقة بين العفو السياسي والمصطلحات المشابهة:

هناك العديد من المصطلحات التي قد تتشابه في جزء من مضمونها مع العفو السياسي سواء من ناحية العموم والخصوص، أو من ناحية التشابه في بعض الإجراءات والمقاصد والأهداف، ومن تلك المصطلحات:

١. **العدالة الانتقالية:** وهي مجموعة من التدابير القضائية وغير القضائية التي تُتخذ زمن الانتقال من النزاع أو القمع إلى الاستقرار السياسي؛ لمعالجة المشكلات التي عاشتها الدول بهدف تحقيق المحاسبة، وتعويض الضحايا، وتعزيز الثقة، وتجاوز خلافات الماضي[١].

فيتضح أنّ بين العدالة الانتقالية والعفو السياسي عمومًا وخصوصًا، فالعدالة الانتقالية إجراء عام يشمل العفو ويشمل غيره، والعفو يعتبر إجراءً من إجراءات العدالة الانتقالية.

(*) باحث دكتوراه في السياسة الشرعية والفقه الإسلامي، رئيس منتدى المنارة، وأحد طلاب مركز إعداد العلماء.

(١) مكتب المفوض السامي لحقوق الإنسان: ‹حول العدالة الانتقالية وحقوق الإنسان›
.https://www.ohchr.org/ar/transitional-justice/about-transitional-justice-and-human-rights

٢. **الصفح:** وهو الإعراض عن الذنب؛ فصفحت عن ذنب فلان أي أعرضت عنه فلم أؤاخذه بذنبه[١]، والصفح هو ترك التأنيب وهو أبلغ من العفو فقد يعفو الشخص ولا يصفح[٢]، قال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩]، قال: «العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح ترك تثريبه»[٣].

وإن كان بينهما فرق من حيث المعنى لأنّ الصفح عبارة عن عفو وزيادة، إلا أنّ استعمال الصفح في القرارات السياسية قليل؛ لأنّ الصفح مصطلح ذو بعد أخلاقي وشخصي أكثر من كونه إجراءً قانونيًّا أو سياسيًّا، فقد تُسقط الدولة العقوبة عن أفراد أو جماعات لكن قد لا تستطيع أن تُسقط اللوم عنهم من قبل المجتمع.

وعليه لو أصدرت الدولة عفوًا سياسيًا عن جهة ما فإنّ ذلك لا يمنع من لومها ما لم ينص قرار العفو عن منع اللوم بنص خاص؛ لأنّ العفو العام لا يشمل ذلك بنفسه.

٣. **المصالحة الوطنية:** وهي عملية تنازل الأطراف عن حقّ أو دعوى بهدف إعادة بناء العلاقات بين الأطراف المتنازعة لإنهاء الصراعات والنزاعات أو منعها.

ومن خلال التعريف يظهر أنّ بين العفو السياسي والمصالحة عمومًا وخصوصًا، فالمصالحة الوطنية هي إجراء شامل يتضمن العفو السياسي جزءًا من تدابيرها، بالإضافة إلى إجراءات أخرى مثل العدالة الانتقالية والتعويضات وغيرها، بينما العفو السياسي هو إجراء محدّد يركّز على إسقاط العقوبة عمن ثبتت في حقّه العقوبة.

كما أنّ المصالحة السياسية توحي بتنازل طرف عن حقّ أو دعوى في مقابل تنازل الطرف الآخر عن حقّ أو دعوى بهدف إنهاء النزاع أو منعه، بعكس العفو الذي لا يشمل هذا التقابل، بل هو يصدر من طرف واحد وهو مَن بيده الحقّ العام.

وعليه فالمصالحة الوطنية لا تتم إلا إذا قبل الطرفان المتنازعان بنود المصالحة، بعكس العفو العام الذي لا يؤثر في نفاذه عدم قبول الطرف المعفو عنه.

٤. **التنازل عن الحقوق:** يشير هذا المصطلح إلى إسقاط صاحب الحقّ حقّه الشخصي عمن ثبت ذلك الحقّ في ذمّته؛ مثل التنازل عن القصاص أو الدية، أو العفو عن الحقوق المالية أو الشخصية.

وأمّا الفرق بينه وبين العفو السياسي: فتنازل أهل الحقوق عن حقّهم لا يعني بالضرورة إسقاط العقوبة العامة، ولا يستلزم العفو العام، خاصّة إن كانت الجريمة تتعلق بحقوق الله أو حقوق المجتمع، كما أنّ العفو السياسي لا يستلزم التنازل عن الحقوق الخاصّة المتعلّقة بأعيان الأفراد.

> **تنازل أهل الحقوق عن حقّهم لا يعني بالضرورة إسقاط العقوبة العامّة، ولا يستلزم العفو العام، خاصّة إن كانت الجريمة تتعلق بحقوق الله أو حقوق المجتمع، كما أنّ العفو السياسي لا يستلزم التنازل عن الحقوق الخاصّة المتعلّقة بأعيان الأفراد**

أنواع العفو السياسي:

من خلال الاستقراء وفرض الفروض يمكن أن يتنوّع العفو السياسي إلى الأنواع التالية:

١. **العفو العام:** وهو قرار شامل يصدره مَن بيده الحقّ العام بإسقاط العقوبات عن جميع الجرائم السياسية التي وقعت خلال فترة زمنية محددة، ليشمل جميع مرتكبي الجرائم السياسية، سواء كانوا محاكمين أو غير محاكمين، وغالبًا ما يُطبق بعد نزاعات أو صراعات سياسية كإجراءٍ لتحقيق المصالحة السياسية؛ كالعفو عن كافّة المعتقلين السياسيين بعد الثورات أو الحروب الأهلية.

٢. **العفو الخاص:** وهو قرار يُصدر لإسقاط العقوبة عن شخص أو مجموعة محدّدة من الأفراد دون أن يشمل جميع مرتكبي الجرائم؛ كالعفو عن معارض سياسي بهدف التهدئة السياسية أو كجزء من اتفاقات سياسية.

٣. **العفو المشروط:** وهو عفو يتم منحه بشرط التزام المعفو عنهم بشروط معينة، كالعفو

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي (٥٤٠/٦).
(٢) الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، للكفوي، ص (٥٦٢).
(٣) تفسير البيضاوي (١٠٠/١).

عن الجنود المحاربين مع اشتراط إلقاء السلاح والعودة إلى بيوتهم، وهذا العفو يتوقّف نفاذه على التزام المعفو عنهم بشروط العفو. كما فعل علي ﷺ مع الخوارج عندما قال لهم: «لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم فيئًا ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا»[1].

مشروعية العفو السياسي:

ورد في مشروعية العفو السياسي والترغيب فيه نصوص خاصّة، كما أنّ ما ورد في مشروعية العفو عمومًا دال على مشروعية العفو السياسي لكونه جزءًا من أجزائه، ومن تلك النصوص:

من القرآن الكريم:

١. قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قال الألوسي: «والأخذ مجاز عن القبول والرضى، أي: ارض من الناس بما تيسر من أعمالهم، وما أتى منهم، وتسهل من غير كلفة، ولا تطلب منهم الجهد وما يشقّ عليهم؛ حتى لا ينفروا، ... وجوّز أن يراد بالعفو: ظاهره، أي: خذ العفو عن المذنبين، والمراد: اعف عنهم ...

(وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) أي: ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عليهم، وأغض بما يسوؤك منهم»[2].

فالآية خطاب لرئيس الدولة التي كان يمثّلها في ذلك الوقت النبي ﷺ في كيفية تعامله مع أعدائه.

٢. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ۝٣٩ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٣٩-٤٠]، قال صاحب اللباب: «أي إنّ الله ندب المعاقِبين إلى العفو عن الجاني»[3]، وقد وردت هذه الآيات في سياق الردّ على مَن بُغي عليه، وقيّد العفو بعطفه على الإصلاح، ليفيد ذلك أنّ من صفات المؤمنين الانتصار على مَن بغى عليهم، ومن حقّهم المشروع ردّ السيئة بسيئة مثلها، ولكن إن كان العفو يؤدّي إلى إصلاح ومصلحة فعفوه عمَّن يستحق العقوبة مأجور عليه، لكن إن لم يكن في العفو صلاح فهو لا يدخل في ضمن الثواب المترتّب على العفو في حقّ مَن ثبتت في حقّه العقوبة؛ لأنّ العفو في هذه الحالة يكون فسادًا لا صلاحًا ولا إصلاحًا.

٣. قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وهذه الآية فيها دلالة على جواز العفو؛ إذ إنّها في سياق العفو في الدماء من أولياء الدم، وأنّ مَن صدر في حقّه العفو فلا بدّ أن يقابل الإحسان بالإحسان.

٤. قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، فقد جاء الأمر بالعفو في سياق ذكر عداوة بني إسرائيل للإسلام وأهله.

من السنّة النبوية:

١. ورد في كتاب أخبار مكة: «أنّ النبي ﷺ دخل يوم الفتح البيت، فصلى فيه ركعتين ثم خرج، وقد لبط بالناس حول الكعبة، فأخذ بعضادتي الباب، فقال: (الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ماذا تقولون وماذا تظنون؟) قالوا: نقول خيرًا ونظن خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت فأسْجِحْ، قال: (فإني أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، ألا إنّ كلّ ربا كان في الجاهلية أو دم أو مال فهو تحت قدمي هاتين)[4]، وفيه دلالة على عفو القائد المنتصر على العدو المغلوب، وفيه تتجلى سماحة الإسلام وعدله.

٢. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرجٌ فخلّوا سبيله، فإنّ الإمامَ أن يُخطِئَ في العفو خيرٌ من أن يُخطِئَ في العقوبة)[5].

---

(١) المهذب في اختصار السنن الكبير، للذهبي (٦/٣٢٩٩).
(٢) تفسير الألوسي (٥/١٣٧).
(٣) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (١٤/١٣٣).
(٤) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (٢/١٢١)، ومعنى فأسْجِحْ: ارفقْ وأحسن بالعفو ولا تأخذ بالشدّة.
(٥) أخرجه الترمذي (١٤٢٤).

ضوابط العفو السياسي

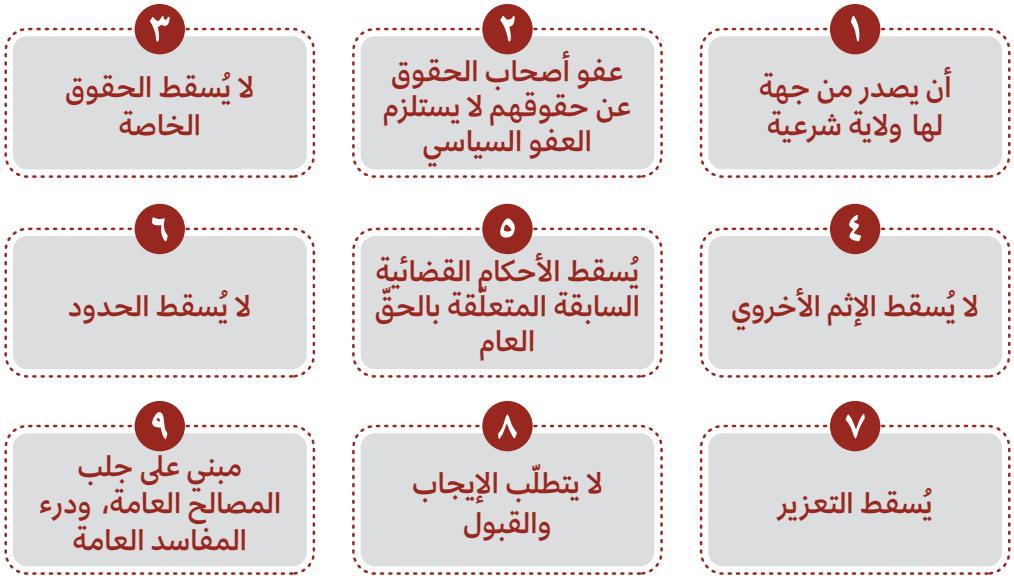

ففي هذا الحديث يوجه النبي ﷺ أئمة المسلمين بدرء الحدود عمّن وجبت في حقّه العقوبة ما استطاع الإمام إلى ذلك سبيلاً إن كان هناك شبهة تُسقط الحدود؛ فإنّه إنْ يخطئ في العفو عمّن وجبت في حقّه العقوبة خير له من أن يخطئ في عقوبة مَن لم تجب في حقّه العقوبة، أمّا مَن بانت جريرته ووجبت عقوبته فلا يجوز للإمام إسقاطها عنه.

٣. وقد عفا النبي ﷺ عن وحشي رضي الله عنه قاتل عمه حمزة رضي الله عنه حين فتح النبي ﷺ مكة ففرّ منها إلى الطائف، وكان النبي ﷺ قد أهدر دمه، وحين صدر في حقه العفو أسلم وحسن سلامه، حتى إنّه قتل مسيلمة الكذاب في معركة اليمامة[١].

٤. وقد عفا النبي ﷺ عن زعيم المنافقين ابن سلول بعد أن أعلن الحرب على دولة الإسلام، كما في حديث جابر رضي الله عنه أنّه قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ وقد ثابَ معه ناسٌ من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجلٌ لعّاب، فكَسَعَ أنصاريًا، فغضب الأنصاري غضبًا شديدًا حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي ﷺ فقال: (ما بال دعوى أهل الجاهلية؟) ثم قال: (ما شأنهم؟)، فأُخبر بكَسْعَةِ المهاجري الأنصاري، قال: فقال النبي ﷺ: (دعوها فإنّها خبيثة)، وقال عبدالله بن أبي ابنُ سلول: أَقَدْ تداعوا علينا؟ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، فقال عمر: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث؟ -لعبد الله- فقال النبي ﷺ: (لا يتحدّثُ الناسُ أنّه كان يقتلُ أصحابَه)[٢].

إن كان العفو يؤدي إلى إصلاح ومصلحة فالعفو عمَّن يستحق العقوبة محمودٌ مأجورٌ، لكن إن لم يكن فيه ذلك فلا؛ لأنّ العفو في هذه الحالة يكون فسادًا لا صلاحًا ولا إصلاحًا

مقاصد العفو السياسي:

الأصل أن يُبنى العفو السياسي على قاعدة تحقيق المصالح ودرء المفاسد، وعندما يكون العفو كذلك فإنّه يحمل في طيّاته مقاصد شرعية واجتماعية وسياسية من شأنها الإسهام في تحقيق الاستقرار السياسي، ومن أهم تلك المقاصد:

(١) الطبقات الكبير، لابن سعد (١٤٥/٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٥١٨)، ومعنى كسَعَ: أي ضرَبَ دُبُرَه بيَدِه أو رِجلِه.

١. تحقيق مقاصد الشريعة في حفظ الدين والنفس والمال والعقل والنسل، سواء من ناحية تطبيق العقوبة أو درئها، فأمّا من ناحية إمضاء العقوبة على مَن ثبتت في حقه العقوبة ففي ذلك ردع لكل ظالم عن أي ظلم مستقبلي، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وأمّا من ناحية درء العقوبة عمّن ثبتت في حقّه العقوبة ففي ذلك حفظ لدمه وعرضه وماله، وإتاحة فرصة جديدة ليكون رجلاً صالحًا.

وهذا يجعل صاحب العفو أمام ميزان دقيق يوازن فيه من خلال الضوابط التي سنذكرها لاحقًا -إن شاء الله تعالى- بين درء العقوبة أو إمضائها.

٢. إقامة العدل ومنع الظلم: فالعفو الذي يراعي الضوابط الشرعية يُحقق العدالة، سواء كان في درء العقوبة أو إعادة الحقوق لأصحابها، ويمنع الظلم الذي قد يقع نتيجة الممارسات الانتقامية، فمن خلال تلك الضوابط تستطيع الجهة المصدرة للعفو أن تُدخل في بنود العفو ما يحقّ لها العفو فيه، فيكون في ذلك رحمة لمن وقع منه الخطأ، ولا تدخل في بنود العفو ما لا يحقّ لها العفو فيه، حتى يكون في ذلك صيانة لحقوق المظلومين وأولياء الدم من المقتولين.

٣. إصلاح المجتمع وتحقيق الوحدة: فالعفو يسهم في تجاوز الخلافات وترميم العلاقات الاجتماعية، مما يُعيد اللحمة إلى الأمّة ويقوّي بنيانها.

٤. الإسهام في تحقيق المصالحة الوطنية: من خلال إزالة العوائق النفسية والاجتماعية التي خلّفتها النزاعات المسلّحة أو الاضطرابات السياسية، مما يؤدّي إلى تهدئة النفوس، وإعادة دمج الأفراد في المجتمع، وتجاوز الماضي المؤلم والتركيز على بناء المستقبل.

٥. ضمان استقرار الدولة، وتقليص فرص العودة إلى دوامة العنف.

ضوابط العفو السياسي:

ولأن العفو السياسي مبني في الأساس على جلب المصالح ودرء المفاسد، فلا بدّ من ضبطه بمجموعة من الضوابط الشرعية التي ذكرها العلماء ونصّت عليها الأدلّة؛ حتى يكون وسيلة لتحقيق العدالة وترسيخ مبدأ الرحمة، لا وسيلة لضياع الحقوق، وتشجيعًا لتمادي الظلمة، وبابًا لفرار المجرمين من وجه العدالة، ومن تلك الضوابط:

١. **أن يصدر من جهة لها ولاية شرعية:** يجب أن يكون العفو السياسي صادرًا من الحاكم الشرعي أو من ينوب عنه ممن يملك صلاحية إصدار العفو؛ لأنّ العفو السياسي يُسقط حقًا عامًا، ولا يملك إسقاط الحق العام إلا مَن يملكه، ومَن يملكه هو الجهة التي خوّلها الشعب بالتصرّف في ذلك الحق[١].

٢. **عفو أصحاب الحقوق عن حقوقهم لا يستلزم العفو السياسي:** وذلك كما لو كانت الجريمة السياسية لها تعلّق بحقوق مواطنين معينين في قتل أو سلب مال أو غيره، وصدر بحق صاحب الجرم حكمٌ، فإنّ إسقاط أصحاب الحقوق لحقوقهم لا يستلزم العفو عن صاحب الجرم في تلك القضية السياسية.

وقد قال مالك -رحمه الله- في أهل الحرابة، وهي جريمة سياسية كما هو واضح: «وهذا القتل -أي قتل صاحب الحرابة- محتوم ولا يجوز العفو عنه، وإن عفا عنه ولي الدم كان عفوه لغوًا»[٢].

٣. **العفو السياسي لا يسقط الحقوق الخاصة:** فالعفو السياسي إسقاط للعقوبة لمن ثبتت في حقّه العقوبة في حقّ عامّ لا في حقّ خاصّ، فيسقط عن المعفو عنه الحقّ العامّ لكن لا يسقط عنه الحقّ الخاصّ المتعلّق بشخص معيّن، ما لم يسقطه ذلك المعين عنه، فالإمام لا يملك الحقّ في إسقاط حقوق الآخرين عن الآخرين.

قال الماوردي رحمه الله: «ولو تعلّق بالتعزير حقّ لآدمي -كالتعزير في الشتم والمواثبة- ففيه حقّ المشتوم والمضروب، وحقّ السلطنة للتقويم والتهذيب، فلا يجوز لولي الأمر أن يُسقط بعفوه

(١) ينظر: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية، ص (٧١-٧٢).
(٢) الأحكام السلطانية، للماوردي، ص (١٠٨).

حقّ المشتوم والمضروب، وعليه أن يستوفي له حقّه من تعزيز الشاتم والضارب»[١].

٤. **العفو السياسي لا يسقط الإثم الأخروي:** وذلك أنّ الإثم مردّه إلى الله تعالى لا يسقطه أحد من عباده عنه كائنًا مَن كان، حتى ولو أسقط العفو عقوبة، فلا يسقط الإثم إلا توبة صادقة، وهذا بين العبد وربه.

والدليل على ذلك عفو النبي ﷺ -كما مرّ- عن ابن سلول عندما أعلن الحرب على الدولة الإسلامية، ولم يخرجه ذلك العفو من دائرة النفاق والإثم، وقد قال الماوردي في حقّ المحاربين: «فإن تابوا قبل القدرة عليهم سقطت عنهم -مع المآثم- حدودُ الله سبحانه»[٢]، أي سقط عنهم الحدّ لتوبتهم قبل القدرة عليهم الذي استحقوه بالخروج للحرابة وقطع الطريق.

٥. **العفو السياسي يُسقط الأحكام القضائية السابقة المتعلّقة بالحقّ العام:** إذا صدر حكم قضائي سابق في قضية حقّ عامّ على مُدان فإنّ العفو السياسي يسقطه إذا كان العفو يشمله، بمعنى أنّ العفو السياسي لديه القدرة على إسقاط الأحكام القضائية السابقة للعفو.

والدليل على ذلك: الخبرُ الذي ذكرناه سابقًا من عفو النبي ﷺ عن وحشي رضي الله عنه بعد أن أهدر دمه، وكذلك عكرمة بن أبي جهل فقد أباح النبي ﷺ دمه ثم عفا عنه، ولهذا قال الماوردي رحمه الله تعالى: «ومَن أباح الإمام دمه من المشركين لعظم نكايته وشدة أذيته، ثم أُسر؛ جاز له المنّ عليه والعفو عنه»[٣].

٦. **العفو السياسي لا يُسقط الحدود:** لأنّ الحدود حقّ لله تعالى فلا يملك أحد إسقاطها بعد رفعها إلى الجهة المختصة وإثباتها بالبيّنة أو الاعتراف، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنّ رسول الله ﷺ قال: (تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حدّ فقد وَجَبَ)[٤]، لهذا ورد في الموسوعة الفقهية: «ويرى الفقهاء أنّ الحدّ الواجب لحقّ الله تعالى لا عفو فيه ولا شفاعة ولا إسقاط»[٥].

٧. **العفو السياسي يسقط التعزير:** لأنّ مردّ التعزير وتقديره للسلطان أو من ينوب عنه في ذلك؛ فجاز له إسقاطه بالعفو، قال الماوردي: «إنّ الحدّ وإن لم يجز العفو عنه ولا الشفاعة فيه، فيجوز في التعزير العفو عنه، وتسوغ الشفاعة فيه»[٦].

٨. **العفو السياسي لا يتطلّب الإيجاب والقبول:** العفو يصدر من طرف واحد -كما مرّ في مفهومه- وهو مَن يملك صلاحية إصدار العفو. ولا يؤثّر في نفاذه وترتّب أحكامه عدمُ قبول الطرف المعفو عنه، قياسًا على عفو ولي الدم عن القاتل من القصاص إلى الدية، فإنّه لا يشترط رضاه؛ لأنّه محكوم عليه في الأصل[٧].

٩. **مبنى العفو السياسي على جلب المصالح العامة، ودرء المفاسد العامة:** فالعفو السياسي يعتمد على الموازنة بين المصالح والمفاسد، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ هذه المصالح أو المفاسد حقيقية لا وهمية وعامة لا خاصة، كتحقيق الاستقرار أو إنهاء نزاع مسلح.

الخاتمة:

يعتبر العفو السياسي أحد الوسائل المهمّة للاستقرار السياسي وإنهاء الصراعات، ولتحقيق التوازن بين الرحمة وحفظ الحقوق في العفو السياسي: لا بد من ضبطه بضوابط شرعية تكفل تحقيق المصالح العامة ودرء المفاسد، والتوازن بين الرحمة وضمان الحقوق، وهذا يؤدي بدوره إلى الاستقرار السياسي وإنهاء الصراع.

(١) الأحكام السلطانية، ص (٣٤٦).
(٢) المرجع السابق، ص (١٠٩).
(٣) المرجع السابق، ص (٢٠٩-٢١١).
(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٧٦) والنسائي (٤٨٨٦).
(٥) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٨٤/٣٠).
(٦) الأحكام السلطانية، ص (٣٤٦).
(٧) الفقه الإسلامي وأدلته، للدكتور وهبة الزحيلي (٥٦٩٢/٧).

الخطاب النسوي المعاصر واستهدافه تفكيك مؤسسة الأسرة

أ. محمد الغباشي (*)

بدأت الحركة النسوية نشاطها بالمُطالِبة بالقضاء على التمييز ضد الأنثى والذي كان سائدًا في المجتمع الغربي، ثمّ ما لبثت أن تحوّلت إلى حركة متوحّشة غرضها التمييز ضدّ الرجل، ومحاولة السيطرة عليه وقهره، وضرب الثوابت الدينية والاجتماعية المتعلّقة بالأسرة والعلاقة بين الجنسين، وعندما انتقلت هذه الحركة إلى البلاد الإسلامية واجهت مقاومة مجتمعية استدعت من النسويات العربيات شراسة وتطرّفًا كبيرين. فهل نجحت الحركة النسوية المعاصرة في مساعيها؟ ولماذا؟ وما مسارات العمل التي اتبعتها؟ هذا ما سيجيب عنه هذا المقال

لم تتعرّض منظومة الأسرة عبر تاريخها الطويل لحرب شعواء كالتي تتعرّض لها حاليًا على أيدي الحركة النسوية المعاصرة وسرديتها المسمومة، حيث تواجه الأسرة عملية تفكيك محمومة وممنهجة تستهدف كافّة عناصرها، بدءًا بالزوجة الراعية الأولى في الأسرة وصانعة الجيل، والتي هي الموضوع الرئيس للحركة النسوية والمستهدف الأساس لها، مرورًا بالزوج ربّ الأسرة وحجر زاوية القيادة فيها، وانتهاءً بالأبناء الذين هم أحد أهم أهداف تكوين وقيام مؤسسة الزواج والأسرة.

ولئن كانت للنسوية أجندتها وأهدافها التي تعلنها ولا تستخفي عنها، فإنّ أحد أهدافها الأثيرة هي تغيير البنية الطبيعية الفطرية للأسرة الهرمية؛ بخفض وتصعيد الرُّتب فيها إلى الحدّ الذي يصل بها إلى مرحلة الهدم أو على أقلّ التقديرات الوجود العدمي المفرّغ من معناه، والذي سيؤول بها في النهاية إلى التفكّك والانتهاء المعنوي، ثمّ الزوال الفعلي الذي بانت بوادره في الغرب، حيث يشهد حالة مستعرة من الفرار من تكوين الأسر، والاكتفاء بالعلاقات الجنسية العابرة، أو حتى الدائمة التي تقوم في

(*) مرشد نفسي واجتماعي، والمدير التنفيذي لمنصة رواحل التربوية.

الأساس على الاستغلال الجنسي للمرأة والتلاعب بها عاطفيًا؛ لتحقيق المآرب الغريزي للرجل بعيدًا عن أي التزام ديني أو أدبي أو اجتماعي.

التطوّر التاريخي للنسوية وصولاً لمرحلة التطرّف الفكري:

نشأت الحركة النسوية أول ما نشأت في أواخر القرن الثامن عشر بهدف القضاء على الاضطهاد والتمييز ضدّ الأنثى في المجتمع الأوروبي، إلا أنّها انحرفت عن مسارها عبر عدة مراحل زمنية ليس هذا محلّ التفصيل فيها، وتحولت تحولاً جذريًا من مدافع حقيقي عن حقوق النساء إلى حركة تمركُز حول الأنثى، تعمل على معاداة الرجل والتمييز ضدّه ومحاولة سحْقه، وتسعى للقضاء على مؤسسة الأسرة واستبدالها، وفرض الرؤى والسلوكيات الأنثوية على المجتمع بكافة أطيافه مهما كان ذلك معاديًا للطبيعة الفطرية والاجتماعية لأبناء المجتمع.

وقد أمعنت الحركة النسوية العالمية في ذلك أيّما إمعان، إلا أنّ النسويات العربيات كنّ أشدّ تطرفًا في ذلك الخطاب العدائي من مثيلاتهن من الغربيات؛ ذلك أنّهن يواجهن حالة من الترابط الأسري -ولو بشكل نسبي- تستند إلى الدين والقيم الشرقية المحافظة أكثر من نظيراتهن الغربيات اللاتي باتت مهمتهن أيسر وأسهل؛ حيث تمّ الإجهاز بصورة كبيرة على كثير من القيم والأعراف في المجتمع الأوروبي والغربي، وصار الترويج لمثل هذه المبادئ من السهولة بمكان نظرًا لاستفحال المادية والرأسمالية الغربية في مجتمع الحداثة وما بعد الحداثة، والذي يتعامل مع الكائنات البشرية على أنّها مجرّد أدوات مادية للإنتاج والاستهلاك، ملغيًا بذلك بُعدها الإنساني والاجتماعي والديني.

أمّا في البلدان الإسلامية فكانت درجة مقاومة مثل هذا الفكر المسموم عالية نسبيًا، رغم ما أصابها من ضربات متتابعة على عدة مستويات، فكان الواقع يستدعي من النسويات العربيات مواجهة أشدّ ضراوة وأكثر تطرّفًا في مواجهته، وهو ما دعا بعض النسويات مثلاً إلى التملّص المطلق من انتمائهن الأنثوي نفسه واعتباره وصمة ضعف يترفعن عن الاتصاف بها[1].

> **النسويات العربيات أشدّ تطرّفًا في الخطاب العدائي من مثيلاتهن الغربيات؛ ذلك أنّهن يواجهن في البلدان الإسلامية حالة من الترابط الأسري الذي يستند إلى الدين والقيم الشرقية المحافظة؛ لذا كانت مقاومة هذا الفكر عالية؛ مما استدعى منهنّ مواجهة أشد ضراوة وأكثر تطرّفًا**

استهداف النسويات لمؤسسة الأسرة:

الأسرة هي الراعي الأول للقيم في المجتمع، بل هي اللبنة الأولى والنموذج المصغّر للمجتمع الإنساني القائم على التراتبية والهرمية، وإنّ قيامها على مبدأ الهرمية هو أحد أهم ضمانات نجاحها واستمراريتها، إلا أنّ الدعاوى النسوية المعاصرة قائمة على محو هذه الهرمية، والدعوة لأنْ يكون جميع أفراد الأسرة أندادًا لبعضهم، مهما تدنّت رتبتهم الهرمية كالأبناء، ومهما تضاءلت إمكانات بعضهم عن تقلّد مسؤولية قيادة الأسرة والقوامة عليها لعدم تناسب هذه المهام مع الخصائص النفسية والبدنية لها.

وكما أسلفنا، استهدفت الحركة النسوية المعاصرة تفكيك مؤسسة الأسرة عبر استهدافها لعناصرها المفردة، والتي جاءت كالتالي:

أولاً: استهداف الزوجة/الأم صانعة الجيل:

استهدفت الحركة النسوية كلّ عنصر من العناصر المكونة للأسرة على عدّة مستويات وليس على مستوى واحد، سنستعرض كلاً منها على حدة، وكان على رأس عملية الاستهداف تلك: الزوجة/الأم، وجاء هذا الاستهداف كالتالي:

* **المجال الأول: استهداف أنوثة المرأة:**

أحد أهمّ التدابير التي اتبعتها النسويات: الترويج لمسألة المساواة بين الجنسين، لا في الحقوق

(١) هناك رأي مطروح وله وجاهة لغوية عن أنّ الترجمة الأدق لمصطلح (Feminism) هي (أنثوية) وليست (نسوية)، إلا أنّه نظرًا لأنّ هذا المصطلح (أنثوي) يوحي بالضعف والرقة اللتين هما من الصفات الملازمة للمرأة، تملّصت منه وحاربته ثلّة من النسويات العربيات من أمثال (الناقدة العراقية نازك الأعرجي، والباحثة العراقية أيضًا لطيفة الدليمي النسويتين)، واستبدلنه بالمصطلح (نسوي) للتخلّص من هذه الوصمة التي يرينها تحطّ من شأنهن بوصفهن كائنات قوية ومستقلة (Strong And Independent). وإن كنّا نؤيّد تسميته بالنسوي نظرًا لدقة دلالته الاجتماعية، إلا أن رفض النسويات للمصطلح بهذا المبرر يفسّر حالة الانحراف الفكري التي أصابتهن والتي جعلتهن يرفضن الصفات الفطرية المميزة للمرأة بصورة عامة.

والواجبات المجتمعية فحسب، وإنّما انسحب ذلك على مستوى أهم وهو المساواة في الجانب النفسي والسلوكي -والجسدي أحيانًا- رغم الاختلافات الواضحة التي لا تخفى حتى على غير الخبير. والعجيب أنّه دائمًا ما تكون المقارنة المعيارية بالرجل! فكأن الصفات المثالية المعيارية التي ينبغي أن تحوزها المرأة هي الصفات الذكورية، لا أن تكون لها خصوصيتها وشخصيتها المستقلة عن الرجل كما تروج له النسويات. فصارت صفات وسلوكيات مثل القوة والعنفوان والشراسة في التعامل -والتي هي صفات وسلوكيات ذكورية بحتة- مما يجب على المرأة التزود به من وجهة نظر النسويات.

وهذا تسبب في زعزعة شعور المرأة بنفسها وأنوثتها، ونزوعها المستمر للاسترجال واستنساخ صورة الرجل في ذاتها، سواء في تعاملاته أم طريقة حديثه، أم تقلدها للوظائف التي لا تناسبها نفسيًا وبدنيًا واجتماعيًا، وشعورها الدائم بالنقص لأنّها مهما تكلّفت القوة وتحايلت على خصائصها فإنّها لن تتمكن من الوصول إلى الحالة الذكورية الكاملة. وهذا كان له بالغ الأثر في تراجع طاقتها الأنثوية واستبدال جزء كبير منها بطاقة ذكورية زهّدت الرجل فيها من حيث كونها أنثى مطلوبة ومرغوبًا فيها، وتحولت إلى كائن مسخ شِبه مماثل للرجل في خصائصه؛ ففقدت جزءًا كبيرًا من أثرها الأنثوي، لا سيما مع زوجها الذي يحتاج عاطفيًا لوجود أنثى رقيقة الطباع في حياته تعوّضه قساوة الحياة التي يكابدها.

ومن العجائب أنّ مجرّد الحديث عمّا تمتلكه المرأة من مقوّمات الأنوثة والرقّة والدلال الفطري صار يثير اشمئزاز النسويات أنفسهن، وصرن يصفنه بالتصنُّع والتكلُّف، رغم أنّ ابتعادهنَّ عنه وإهماله هو الانحراف ذاته، ومخالفة الفطرة التي تبرمجت المرأة خلالها على الأنوثة والرقّة والدلال. ومن المفارقات في هذا السياق أن النسويات يطالبن الرجال بمعاملتهن بتهذيب مبالغ بناءً على أنهن إناث يحتجن إلى تعامل خاص! في الوقت الذي يعاملن فيه الرجال بذكورية وشراسة وحِدّة واضحة ويتلبسن فيه رداء الذكورة، وهذا منحهن وصفًا مغايرًا لكلا الجنسين، فلا هن إناث بكل ما حبا الله النساء من صفات الأنوثة، ولا هن ذكور بكل ما حبا الله الرجال من صفات الذكورة!

من العجائب أنّ مجرّد الحديث عما تمتلكه المرأة من مقومات الأنوثة والرقة والدلال الفطري صار يثير اشمئزاز النسويات أنفسهن، وصرن يصفنه بالتصنُّع والتكلُّف، رغم أن ابتعادهنَّ عنه وإهماله هو الانحراف ذاته، ومخالفة الفطرة التي تبرمجت المرأة خلالها على الأنوثة والرقّة والدلال

❋ المجال الثاني: مستوى الأمومة والخروج للعمل:

حدث ذلك خلال العقود الأخيرة عبر الطعن في الدور التقليدي للزوجة/الأم داخل الأسرة، وتحويل مصطلح (ربّة منزل) إلى وصمة عار تنفر منها الأنثى وتخجل من التصريح بها في المجتمعات النسائية التي تنتمي إليها، وأصبحت المرأة تسعى بصورة مستمرة لتغيير هذا الوضع ونيل وسام (المرأة العاملة) باعتبار ذلك ترقّيًا اجتماعيًا في محيطها الاجتماعي مهما كانت الوظيفة التي تتطلع إليها وضيعة أو تافهة، إلا أنّ هذا الشعور الزائف بـ (تحقيق الذات) -وهو المصطلح البرّاق الذي تروّج له النسوية لتصف به المرأة العاملة- أعمى عينيها عن تلمّس الطريق الصحيح لتحقيق الذات بصورة أعمق تأثيرًا، وتقلّد المنصب الأنسب لها وهو تربية الأبناء وإعداد الجيل القادم ليحقق نهضة حقيقية في المجتمع.

إنّ التركيبة السوية لأيّ مجتمع تقتضي التخصص، وتفرغ كل قطاع من قطاعاته للمجال الذي يبرع فيه، والمرأة بهذا الاعتبار تبرع في المجال الداخلي بالأسرة، ولها حضور قوي وتميز وإبداع فيه، والذي هو إعداد الجيل ورعايته والاحتضان العاطفي لكافة عناصر الأسرة، بناءً على ما حباها الله من إمكانيات نفسية ومهارات جبارة في هذا المجال، وبما زودها بعاطفة وحنوّ لتتمكن من التعامل مع الجميع -أطفالاً وكبارًا- بصورة تلبي احتياجاتهم العاطفية، فهي (صانعة العاطفة) ومانحتها للجميع، سواء الأطفال في هذه المرحلة المهمة التي تبنى فيها شخصياتهم وتتكون فيها قيمهم، أو الزوج الذي يفتقد للاحتواء العاطفي الرقيق.

وهذا لا يتعارض بطبيعة الحال مع أنْ تتلقى ربة البيت أعلى الدرجات العلمية، ولا أن تسعى للتعليم الجيد على كافة المستويات؛ لأنّ هذا من شأنه

مستويات استهداف تفكيك الأسرة في الخطاب النسوي

أن يمنحها القدرة على العطاء الأكمل والتعاطي الجيد مع قضايا الأسرة التربوية والاجتماعية والنفسية والثقافية، وتلبية احتياجات الأسرة على اختلاف أشكالها وأنواعها، فأداء الزوجة/الأم المتعلّمة والمثقفة مختلف تمام الاختلاف عن غير المثقفة. إضافة إلى أنّ هذا قد يساعدها إذا اضطرت للعمل في بعض فترات حياتها نظرًا لتقلب الظروف الحياتية.

وعلى الرغم من كلّ ذلك تتتابع الدعاوى النسوية لتترك المرأة هذا الدور العظيم الذي تحسنه وتبرع فيه لتمارس دورًا آخر أدنى في الرتبة وغير مطلوب منها ولا هو ضمن إمكاناتها النفسية والبدنية، والذي تحتاج لأدائه بكفاءة -جزئية وليست كاملة- أن تتسلح بأسلحة ذكورية وتتخلى عن بعض صفاتها الأنثوية لتتمكن من الصمود أمام نظرائها من الرجال في سوق العمل المتوحّش. فما الحكمة إذًا من كل ذلك إلا تفريغ الأسرة من معناها وإسناد أمر رعاية الجيل فيها إلى الرجل الذي لا يحسن ذلك ولا هو من ضمن إمكاناته، فهو في هذا الميدان مجرّد مساعد لصاحب الدور الأساسي وهو المرأة! ولمصلحة مَن تبديل الأدوار بهذه الصورة الفجّة التي تهدم وتفكك كيانًا اجتماعيًا مهمًّا كالكيان الأسري وتحويله إلى جسد مهترئ غير قادر على مقاومة عمليات الغزو الخارجي؟[1][2].

ثانيًا: استهداف الزوج / الأب ربّان السفينة:

العنصر التالي في عملية الاستهداف النسوية في الأسرة كان هو الزوج / الأب، وجاء استهدافه هو الآخر على عدّة مستويات كالتالي:

* **المستوى الأول: الحرب على القوامة وخلخلة التراتبية الهرمية بالأسرة وتبديل الأدوار بين الزوجين:**

نظام القوامة هو أكبر ضمانات استمرارية مؤسسة الأسرة عبر تاريخها، حتى إنّ الآية الكريمة التي أقرّت تلك الضمانة جاءت صيغتها كالقانون الذي لا يقبل التبديل أو التعديل وبأقوى أساليب التوكيد اللغوية؛ فقال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤][3].

وليس الزوج القوّام هو القائم على خدمة المرأة بالإنفاق والرعاية فحسب، كما يحلو للنسويات تشويه الآية والمقصود منها، مع تجريد الزوج

(١) من المفيد أن نؤكد هنا أن حديثنا ليس عن النساء اللاتي لديهن ضرورة اقتصادية أو مادية تضطرهن للخروج للعمل لتلبية هذه الاحتياجات الضرورية، فهذه مسألة أخرى.

(٢) نلفت الانتباه إلى أن هذا الذي تعرضنا له هنا هو جانب واحد فقط من الجوانب السلبية لخروج المرأة للعمل دون سبب اضطراري، وإلا فهناك العديد من السلبيات لهذا العمل، وعلى رأسها ارتفاع نسبة الطلاق المخيفة بين الزوجات الموظفات، وقد أشارت إلى ذلك إحصائية أجرتها الهيئة العامة السعودية للإحصاء في تقريرها الثالث في عام ٢٠١٦م والتي أفادت بارتفاع عدد المطلقات الموظفات في المملكة لـ(٧٢,٨٩٥)، في حين بلغ عدد المطلقات من ربات البيوت (١٤,٨٥٦)، بنسبة طلاق تصل إلى حوالي ٨٤٪، وهي نسبة مرتفعة وفي غاية الخطورة تستدعي التأمل والدراسة. وإن كنا لا نعزو جميع أسباب الطلاق إلى خروج المرأة للعمل، إلا أن هذه الأرقام المرتفعة تعطي مؤشرًا خطيرًا على كونه أحد الأسباب المسببة للخلافات الزوجية والطلاق إن لم يكن من أهمها.

(٣) الرجال هنا لفظ عام يشمل كل من له ولاية على المرأة أو من يقوم على شأنها، كالأب والأخ والعم، وليس مقتصرًا على الزوج فقط.

من صلاحياته بالأسرة بهذا التفسير، ووصف هذا النظام الإلهي بـ (النظام الأبوي) الذي ينبغي التخلّص منه واقتلاعه من مؤسسة الأسرة لكي لا يكون للرجل/الزوج وصاية على المرأة/الزوجة، ولكن هذه المهمة التي تتشبث بها النسويات هي إحدى جوانب مهام الرجل القوّام فقط، أما المهمة الأهمّ في هذا النطاق فهي قيادة الأسرة بكافّة عناصرها وأفرادها؛ فالقيادة هي التخطيط والإدارة وسلطة اتخاذ القرار دون مناطِح أو نِدّ من زوجة أو ولد، وهذا أبسط مفاهيم الإدارة وأكثرها بداهة ومنطقية، ومَن يطعن في هكذا مبدأ فإنّما يطعن في منطقية التفكير البشري نفسه، فلا قيادة بلا سلطة، ولا إدارة بلا يد طولى في التوجيه والإثابة والمعاقبة، والرجل بما حباه الله من قدرات نفسية وبدنية مؤهّل لأداء هذا الدور الفطري بكفاءة منقطعة النظير. وليس معنى ذلك إلغاء شخصية الزوجة والأبناء وحقّهم في النقاش وإبداء الرأي وإجراء عمليات العصف الذهني مع الزوج/الأب للخروج بأفضل النتائج والحلول، إلا أنّه يظلّ الرأي الذي يحسم الخلاف هو رأي الزوج/الأب بوصفه القوّام الذي يتحمّل مسؤولية نجاح أو فشل هذا القرار في النهاية.

إنّ تشبث النسويات بإطلاق مصطلح (الشراكة) -على سبيل المثال- على مؤسسة الأسرة يكشف عن توجهاتهنّ لإلغاء صفة الهرمية أو التراتبية التي تضع الزوج/الأب على قمّة هرم القيادة والسلطة في المؤسسة، تليه الزوجة، ويليهما في ذلك الأبناء، وعلى الرغم من عدم دقة دلالة هذا المصطلح على نفي صفة الهرمية على الشركاء، حيث قد تكون هناك شراكة بين شريكين لا تقتضي تساويهما في الرتبة، كالشراكة بنسبة ٢٠/٨٠ مثلاً والتي تمنح صاحب النسبة الأعلى سلطات ورتبة أعلى، إلا أنّ ترويج النسويات لذلك بين البسطاء والعامة يكرّس ذلك رغم كونه أحد المغالطات التي يتبنيْنَها، وهي كثيرة بالمناسبة وتتعلق بأكثر من موضوع.

ولا معنى لانتزاع حقّ القوامة من سلطة الرجل سوى تبادل الأدوار بين الزوجين، فترتفع بذلك درجة الزوجة في قيادة الأسرة وتنخفض في المقابل رتبة الزوج، وهذا التبادل في الأدوار في حقيقة الأمر تشويه مباشر للوضع النفسي للزوجين، واستنزاف لإمكانات كلّ طرف في غير مكانها؛ ما يترتب عليه خلخلة واضحة في المنظومة الأسرية والعائلية.

نظام القوامة هو أكبر ضمانات استمرارية مؤسسة الأسرة عبر تاريخها، حتى إنّ الآية الكريمة التي أقرّت تلك الضمانة جاءت صيغتها كالقانون الذي لا يقبل التبديل أو التعديل وبأقوى أساليب التوكيد اللغوية؛ قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]

* المستوى الثاني: إضعاف الزوج/الأب في مقابل عناصر الأسرة الأخرى:

من البدهيات أنّ ما يجذب الرجل في امرأته هو رقتها ورخاوتها وضعفها بين يديه، والعكس صحيح؛ فأهم ما يجذب المرأة في رجُلها هو قوته وقدرته على حمايتها وحماية الأسرة بكافة عناصرها، فإذا تشوهت هاتان الصورتان واستُبدلتا، فأصبحت المرأة قوية ومستقلّة (Strong And Independent) [مسترجلة بالأحرى] وفقًا لما تطالب به النسويات، مقابل أن يصبح الرجل ضعيفًا هشًّا [مُنَسْوَنًا بالأحرى]، مطالَبًا بإظهار ضعفه وهشاشته أمام امرأته وأبنائه، بزعم ذلك شعورًا بشريًا فطريًا ينبغي عدم الهروب منه؛ فحينذاك تنتكس الفطرة وتنتج كائنات ممسوخة مشوَّهة لأنّها تلعب أدوارًا ليست لها، وهذا يفسر تفشي ظاهرة النساء المسترجلات والرجال المخنثين، وما هذا إلا نتيجة للخلل الناشئ في فهم الأمهات والمربيات بصورة أساسية للفروق الفردية بين الأطفال من الجنسين، والقصور في تربية الفتيات على ما يناسبهن من الرخاوة والرقة واللين، وتربية الفتيان على ما يناسبهم من القوة والمسؤولية.

فإن كانت خلخلة مفهوم القوامة -كما ذكرنا في المستوى الأول- خطوة واسعة في عملية إضعاف الرجل/الزوج/الأب وسلب صلاحياته من الأسرة، وهو جانب مادي ملموس يتضمن إزاحة شخص فاعل ليتقهقر عن منصبه الأساسي المؤثّر، فإنّ ما نتحدث عنه في هذا المستوى يأخذ منحى أخطر على المستوى النفسي والاجتماعي، وله أثر جسيم على كافّة أفراد الأسرة من زوج وزوجة وأبناء، فإظهار الزوج/الأب لضعفه بهذه الصورة، وظهوره -وهو رمز القوة والقيادة في الأسرة- بمظهر المهزوز الضعيف الذي عليه أن يسارع في التباكي كلما

واجهته مشكلة![1] مهما كانت يسيرة بمبرر التنفيس عن مشاعره السلبية! لن يزيده طبيعيةً وقوةً كما تدعي النسويات في البرامج التليفزيونية التخبيبية وعلى صفحات وسائل التواصل الاجتماعي، بل إنّه مقدّمة واقعية وحتمية لسقوطه من نظر كافّة أفراد أسرته وعلى رأسها زوجته تلك التي تطالبه بالبكاء كلّما واجهته مشكلة! وبالتالي تفكك حالة التماسك الأسري بصورة أو بأخرى.

ثالثًا: استهداف الأولاد:

العنصر الأخير في عملية الاستهداف النسوية في الأسرة كان هو الأولاد، وجاء استهدافهم أيضًا على عدة مستويات كالتالي:

* المستوى الأول: الحرية الجنسية للفتاة/الابنة:

تنادي الحركة النسوية بالحرية الجنسية -للفتاة على وجه الخصوص- قبل الزواج، هذه الحرية المستفيد الأول منها هو الشاب المتفلت من المبادئ والقيم والشرائع، حيث يمكنه بكل بساطة ممارسة الجنس وتلبية احتياجه الجسدي الملحّ خارج الإطار الشرعي الذي وضعه الله عز وجل، بلا أيّة تبعات أو مسؤوليات أو أعباء أسرية أو زوجية أو نفسية تجاه الطرف الآخر، أو أعباء اقتصادية وتربوية تجاه الأولاد المحتملين الذين ينتجون عن مثل هذه العلاقة.

فما الذي يلجئ الشاب إلى الدخول في علاقة زواج ما دام أهم مطالبه الأساسية الغريزية -وهو الجنس- ملبىً دون أية أعباء أو مسؤوليات؟ في حين أنّ المتضرر الأساسي من هذه الحرية هي الفتاة؛ فمطلبها الأساسي من الزواج أو العلاقات العاطفية بصورة عامة -وهو حصولها على الأمان النفسي- غير متحقق في هذه الممارسة! وهذا نوع من الانتهاك النفسي والجنسي للفتاة والذي لا تأبه له الحركة النسوية ولا تعيره أي اهتمام في سبيل تحقيق أجندتها الخاصة، ولو كان ذلك على أشلاء المرأة نفسها التي تدعي الحركة ورموزها الدفاع عنها وعن حقوقها. وهذا بالتأكيد يساعد بصورة كبيرة في إنهاء الصورة التقليدية للأسرة التي تتكون من زوج وزوجة وأولاد، ونشوء صور أخرى كثيرة من العلاقات كالمساكنة وعلاقات نهاية الأسبوع كما هو شائع في كثير من الدول الغربية، والتي تسرّب شيء كثير منها إلى بعض دولنا الإسلامية بصورة فجّة وغير متوافقة مع الشريعة أو القيم الشرقية والعربية[2].

* المستوى الثاني: مسخ الطفولة وإذابة الفوارق بين الجنسين:

مثلما أسلفنا في المحور المتعلّق بإضعاف الزوج؛ فإنّ النسوية تروّج لمفهوم في غاية الخطورة يتعلق بضرورة سحق الذكورة، والترويج لعلميات التحول الجنسي من الذكورة إلى الأنوثة والعكس، إلا أنّ الجانب الأبرز هنا هو عملية التحول الذكري إلى الأنوثة، وهي أبرز ما يتضح فيه هذا المسخ المستقذر، فمظاهره بين الذكور أكثر فجاجة وبشاعة في هيئتها من مظاهره بين الإناث، فارتداء الذكر للفساتين النسائية وتقلّده للزينة وارتدائه للكعب العالي مظاهر لا تزال تحتفظ بشناعة منقطعة النظير تفوق بشاعة ارتداء الإناث للأزياء الذكورية.

من جانب آخر تروّج النسوية وتدعو بصورة مكثّفة لإظهار الطفل/الذكر للجانب العاطفي فيه، ومنحه مساحة واسعة للتنفيس عن شجن نفسه وضعفه بالبكاء والانهيار العاطفي، بالطريقة نفسها التي طالبن الرجل فيها بالشيء ذاته وبالمبررات ذاتها. وإنّهن هنا يخلطن بين أمرين في غاية التباين تربويًا ونفسيًا، الأمر الأول: حالات التأثر البشري التي قد تصيب الطفل من حين لآخر، والتي قد

(١) لكي نكون منصفين هنا فإنّ بعض هذه المطالبات ليست مغرضة أو نسوية غرضها تفكيك الأسرة بهذه الصورة القاتمة، لكنّها نابعة عن جهل مركب بطبيعة الرجل التي تختلف اختلافًا جذريًا عن طبيعة الأنثى التي يحسّن البكاء فعلاً من حالتها المزاجية في أحيان كثيرة، لذا تظن كثير من النساء أنّ الرجل إذا فعل مثلما تفعل هي فإنّه سيرتاح، وهذا غير صحيح نظرًا لاختلاف الطبيعة الفسيولوجية والسيكولوجية لكل منهما عن الآخر. إلا أنّه نظرًا لقوة لوبيات وجماعات الضغط النسوية المنتشرة في الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي فقد تمكنت من التأثير في هذه الفئة من النساء وأقنعتهن بأنّ الرجل كالمرأة في ذلك سواء بسواء. وقد فصلنا الحديث في هذه الجزئية في مقال بعنوان: (الحركة النسوية والمعيارية الأنثوية.. البكاء الذكوري أنموذجًا) بموقع مجلة البيان على هذا الرابط: https://www.albayan.co.uk/Article2.aspx?id=19276.

(٢) يلاحظ في كثير من الأعمال الدرامية التي تروّج للمفاهيم النسوية: حالة من تضخيم مسؤولية إنجاب الأطفال، وحصول صدمة للبطل حينما يكتشف أن قرينته في العلاقة غير الشرعية حامل، وتطالبه بأن تكلل علاقتهما الطويلة بالزواج، فيتحجج بالمسؤولية الرهيبة -هكذا يزعم- التي ينبغي أن يستعد لها استعدادًا مبالغًا فيه، في حين أنّ هذا مجرد تهرب من الالتزام الطبيعي في مثل هذه الحالة، إلا أنّ عملية تبغيض المشاهدين في الزواج وتكوين الأسرة وتبعاتهما تقتضي أن يتم إقحام مثل هذه المشاهد العاطفية وغير الواقعية في سيناريو أيّ عمل من مثل هذه الأعمال حتى تترسّخ الصورة الذهنية لدى المتفرّج -الرجل خصوصًا- بأنّ العلاقات العابرة أأمن وأسهل ولا تتضمن أيّة مسؤوليات.

يجد الطفل نفسه فعليًا يبكي متأثرًا بما أصابه من ظلم أو ألم، وهذا سلوك فطري يمكن ترشيده في الأطفال/الذكور واستثماره لتحويله لطاقة مواجهة. والأمر الآخر: تربية الطفل/الذكر أن ينفّس عن آثار المشكلات بالبكاء حتى وإن كان متجلّدًا صلبًا يمكنه المواجهة والصمود؛ بمبرر تفريغ الكبت حتى لا يصاب بالعقد النفسية! فالأمران مختلفان تمامًا، فالأول هو الفطري الذي يمكن ترشيده وتوجيهه بمرور المواقف والأيام، والآخر ينشئ طفلاً/ذكرًا مهزوزًا يهرب من مواجهة مشكلاته على أرض الواقع بالأنين والانتحاب، وهذا أمر ربما لا تفهمه كثير من النساء لأنّه منافٍ تمامًا لفطرتهن وبرمجتهن الذاتية التي ترتاح مع البكاء.

تروِّج النسوية وتدعو بصورة مكثّفة لإظهار الطفل/الذكر للجانب العاطفي فيه، ومنحه مساحة واسعة للتنفيس عن شجن نفسه وضعفه بالبكاء والانهيار العاطفي، بالطريقة نفسها التي طالبن الرجل فيها بالشيء ذاته وبالمبررات ذاتها

❋ المستوى الثالث: الفردانية والأنانية وتأليه الذات:

مما تجتهد النسويات في ترسيخه على أرض الواقع فيما يتعلّق بالمرأة بوجه عام وينسحب بقوة على الفتيات الصغيرات: تضخيم الأنا وتأليه الفتاة لذاتها وحريتها ومساحتها الشخصية، حتى وإن كان ذلك على حساب القيم الأسرية ومصلحة الجماعة الأسرية التي تنتمي إليها، باعتبار أنّ ذلك هو ما يمنحها السعادة والارتياح النفسي الذي سيؤهلها للقيام بمهامها التي على رأسها الدراسة والعمل. وهذا ينطوي على بعض مظاهر الصحّة من بعض جوانبه، إلا أنّ هذه المبالغات المروّجة لهذا المبدأ صنعت من الأبناء -وخاصة الفتيات المراهقات- جزرًا منعزلة، تمكث الفتاة بالساعات في (مساحتها الشخصية) تلك، منفردة بهاتفها وحاسوبها دون رقيب أو حسيب ولا يدري أحد ماذا تفعل، فتُهدَر الأوقات والجهود وتوضع في غير موضعها، في الوقت الذي تحتاج فيه الأسرة لجهد الجميع لتتقدم، بل وينتج عن ذلك الانعزال رغبات أنانية مضادة لمبادئ الاجتماع الإنساني في الأسرة، فبدلاً من أن يصبح الأبناء والبنات عضيدًا قويًا للأسرة داخليًا وخارجيًا؛ تتعارض رغبات عناصر الأسرة جميعًا، وينتج عن ذلك صراع وحرب هما أبعد ما يكونان عن مبادئ الاستقرار والوجود الأسري ذاته.

ونلفت النظر هنا إلى أنّه كلّما ترسّخت قيمة الفردانية والأنانية والانعزال بين أبناء الأسرة (الزوج/الأب - الزوجة/الأم - الأولاد) فإنّه يصبح من السهولة بمكان الانفراد بكلّ منهم والسيطرة عليه وتوجيهه سلبيًا، وكلّما زاد الارتباط بين عناصر الأسرة الواحدة وتماسكها سهلت المهمة على قائدها وربانها في قيادتها وتوجيهها إيجابيًا والحصول على نتائج قيمية مبهرة.

وختامًا..

فإنّ هذه هي أبرز معالم استهداف الخطاب النسوي المعاصر لمؤسسة الأسرة ومساعيه في تفكيكها، وقد نجحت الحركة النسوية في ذلك بصورة كبيرة في البلدان العربية والإسلامية، ولم تكن تلك الحركة لتحقق هذه النجاحات إلا بسبب عملية الغزو الفكري المادي ونشر مناهج الحداثة وما بعد الحداثة التي تغلغلت في العقل الجمعي العربي والإسلامي، أضف إلى ذلك حالة التجريف المعرفي التي تفشّت في بلادنا بسبب بيئة الاستبداد والفساد، والتي نتجت عنها حالة من الخواء الفكري والثقافي جعلت من عقول هذه الأمّة بيئة خصبة يتغذى عليها هذا الفكر الخبيث، والتي تتطلب تضافر كافة الجهود لمواجهة هذه الهجمات المسعورة والتصدّي لها على المستوى الشرعي والفكري والثقافي والاجتماعي، وتهيئة البيئة الاجتماعية الناقدة التي تقيِّم الأفكار والمناهج قبل اعتناقها والترويج لها.

مما تجتهد النسويات في ترسيخه على أرض الواقع فيما يتعلق بالمرأة بوجه عام وينسحب بقوّة على الفتيات الصغيرات: تضخيم الأنا، وتأليه الفتاة لذاتها وحرّيتها ومساحتها الشخصية، حتى وإن كان ذلك على حساب القيم الأسرية ومصلحة الجماعة الأسرية التي تنتمي إليها، باعتبار أنّ ذلك هو ما يمنحها السعادة والارتياح النفسي الذي سيؤهّلها للقيام بمهامها التي على رأسها: الدراسة والعمل

إعادة الإعمار الاجتماعي في سوريا: بين المجتمع الصالح والدولة القوية

أ. عامر المثقال (*)

تعرّض المجتمع السوري طوال عقود للتفكيك بفعل سياسات القمع وضرب الروابط الاجتماعية التي انتهجها النظام البائد وحلفاؤه؛ ما أدى إلى إضعاف بنيته واستنزاف قواه، لذا فإنّ إعادة بناء سوريا لا تقتصر على العمران المادي فحسب؛ بل إن إصلاح المجتمع يعدّ ركيزة أساسية؛ فالمجتمع الصالح هو أساس الدولة القوية. وبطبيعة الحال فإنّ تحقيق ذلك يتطلّب جهدًا مشتركًا بين النخب الفكرية والدعوية والسياسية؛ لتوليد الحلول وتعزيز الثقة والعمل بشكل تدريجي على الإصلاح الاجتماعي.

مدخل:

بعد إسقاط النظام البائد في سوريا تركّز الحديث في الكثير من النقاشات على الدمار الواسع الذي تُعاني منه العديد من المدن والقرى السورية نتيجة سياسات الأرض المحروقة التي تعرّضت لها من قِبل النظام البائد وحلفائه، وبرزت مع تلك النقاشات أهمّية إعادة الإعمار للمنازل والقرى وبناها التحتية.

ومع ما تُشكّله تلك النقاشات من أهمّية كبيرة نظرًا لأنّ إعادة الإعمار تُسهم في توفير حياة كريمة للسوريين المُهجَّرين سواء داخل البلاد أو خارجها، إلا أنّه من المطلوب أيضًا التركيز على إعادة الإعمار الاجتماعي الذي يُعدّ رافدًا مهمًّا لإعمار البُنيان، وأساسًا وركيزة أيضًا لاستقرار المجتمع بعد سنوات من التفكُّك نتيجة سياسات النظام البائد سواء قبل الثورة أو بعدها.

(*) باحث مساعد في مركز الحوار السوري.

وتنبع أهمية الإعمار الاجتماعي[١] من أنّ معظم الهياكل الاجتماعية السورية تعرّضت لانتكاسات حادّة نتيجة السياسات المُدمّرة التي انتهجها النظام البائد على مدار عقود ضدّ البشر والحجر والمجتمع، وتفكيكه القيم التي تُشكّل العمود الفقري لأيّ تماسكٍ اجتماعي، ولذلك يُطرح تساؤل مهم: كيف يمكن لمجتمع مهدَّم أن يُعيد بناء نفسه من خلال إعادة إحياء الروابط الإنسانية والتماسك الاجتماعي؟

يحاول هذا المقال تسليط الضوء على أهمّية إعادة الإعمار الاجتماعي وسبل النهوض به، مع التركيز على المبادئ التي يجب أن تقود هذا الإصلاح لا سيما مع خصوصية الحالة السورية التي تتعدّد فيها العرقيات والإثنيّات والطوائف، وذلك عبر التركيز على خمس مُحدّدات أساسية[٢]: (دور أهل العلم، بناء الثقة بين المجتمع والدولة، التعليم، العمل الأهلي، وتعزيز ثقافة الحوار)، وسيأتي هذا بعد تمهيدٍ يسيرٍ لما أحدثه النظام البائد من شروخ اجتماعية، وهو أمرٌ استغلّته إيران لتوظيفه ضمن مشروعها الطائفي، فكانت لها محاولات حثيثة في تفكيك المجتمع السوري وإعادة هندسته لتكريس الانقسامات بين السوريين[٣].

«الدولة الحديدية» والمجتمع الممزّق.. ثنائية القمع والانهيار الاجتماعي:

الدولة القوية المستبدة قد تُحقّق الهيمنة الظاهرية على المجتمع، لكنّها تفشل في تحقيق الاستقرار الحقيقي؛ إذ إنّ قبضتها الحديدية تعتمد على قمع إرادة الأفراد وكبت أصواتهم وإشاعة الخوف والرقابة؛ ما يؤدّي إلى تحطيم الروابط الاجتماعية بدلاً من تعزيزها كما في نماذج أجهزة المخابرات المتغلغلة بالمجتمعات مثل حالة الاتحاد السوفييتي وألمانيا الشرقية وغيرها من الدول القمعيّة[٤]، ولعلّ هذا ما شهدته سوريا خلال مرحلة نظام البعث البائد؛ حيث بدت الدولةُ قويّةً بمؤسساتها الأمنية المتغوّلة، لكنّها في الحقيقة مزّقت النسيج الاجتماعي وأضعفت القيم التي كانت تربط الأفراد ببعضهم؛ ما أنتج مجتمعًا مُفكّكًا تسوده الشكوك وانعدام الثقة.

تشير العديد من الشهادات من الداخل السوري إلى عمق التمزّق الاجتماعي الذي يعانيه السوريون، في ظلّ غيابٍ شبه كامل للثقة بين الأفراد خاصة مع عودة دفعات من النازحين أو المغتربين إلى مناطقهم، أو مع استقبال مناطق سورية عديدة لمجتمعات جديدة من الوافدين، حيث يحمل كلّ طرف منظومة من الأفكار والتجارب قد تختلف أو تتصادم مع الطرف الآخر[٥]، في حين يتجلّى هذا التباين بشكل واضح في المناطق التي بقيت

(١) في حين أنّه لا توجد تعريفات دقيقة لمصطلح الإعمار الاجتماعي نظرًا لكون كلّ مجتمع يميل إلى تفسيره وسرد جوانبه وفقًا لقيمه وتقاليده، إلّا أنّني سأستمد التعريف انطلاقًا من السنّة النبوية الشريفة، لأقول: إنّ الإعمار الاجتماعي عملية ترميم وإصلاح مستمرّة تهدف إلى تقوية الروابط بين أفراد المجتمع، وتعزيز التكافل والقيم التي حثّ عليها الإسلام، ويستند هذا المفهوم إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦)، كما يقول عليه الصلاة والسلام: (ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٢). هذا ويُذكر أنّ الأدبيات الغربية تشير لتعريفات مختلفة لإعادة الإعمار الاجتماعي، فبعضها يعرّفه بأنّه: عملية تحقيق مستوى من التسامح والتعايش السلمي داخل المجتمع، وبعضها الآخر يدعو إلى اكتساب السكان تماسكًا اجتماعيًا من خلال قبول هوية وطنية تتجاوز الفروقات الفردية والطائفية والجماعية وإيجاد آليات وإرادة لحلّ النزاعات بطرق غير عنيفة، وتطوير مؤسسات مجتمعية تعزز الروابط بين مختلف فئات المجتمع، ينظر مثلاً: Social Reconstruction, United States Institute of Peace, ٢٠٠٩

(٢) لا يعني هذا عدم وجود محدّدات أو مبادئ أخرى يمكن القيام بها للنهوض بإعادة الإعمار الاجتماعي في سوريا، خصوصًا أنّ الأولويات في وضع المحدّدات والمبادئ قد تختلف من وجهة نظر إلى أخرى.

(٣) كان لمركز الحوار السوري عدّة أوراق بحثية ناقشت التغلغل الإيراني في سوريا من جوانب مختلفة ضمن مشروع إيران لتعزيز وجودها بسوريا، من ضمن هذه الأوراق: كان الحديث عن الأدوات الاجتماعية التي استخدمتها إيران بهدف التأثير على جانب من أصحاب التأثير المجتمعي في سوريا من جهة، وتوظيف المجتمع المدني بأساليبه وأدواته المتعددة من جهة أخرى، ينظر: (الورقة التحليلية «التغلغل الثقافي الإيراني في سوريا (٢): الأدوات التعليمية والاجتماعية»، ٢٠٢٠/٦/٢م.) وأيضًا (الورقة التحليلية «التغلغل الثقافي الإيراني في سوريا (٤): مخاطره على الهوية السورية وسبل مواجهته»، ٢٠٢٠/٩/١٩م.)

(٤) على سبيل المثال فإنّ حكومة ألمانيا الشرقية أنشأت جهاز أمن الدولة المعروف بـ «شتازي» بهدف مراقبة السكّان والسيطرة عليهم، وبلغ عدد العاملين المتفرّغين في هذا الجهاز ٩١ ألفًا وقت انهيار ألمانيا الشرقية، بالإضافة إلى شبكة واسعة من المخبرين الذين قدّموا تقارير عن أصدقائهم وأفراد عائلاتهم، ما خلق جوًا من الشكّ وانعدام الثقة بين الناس، ينظر: مسؤولة: تغلغل مخابرات ألمانيا الشرقية يصدم الألمان الغربيين، رويترز، ٢٠٠٩/٥/٢٦م.

(٥) المجتمعات السورية.. سبل إعادة التماسك والاندماج، كندة حواصلي، مركز الحوار السوري، ٢٠٢٤/١٢/٣٠م.

تحت سيطرة نظام الأسد البائد خلال مراحل ما بعد الثورة، حيث تفاقم فيها الفساد والانحطاط الأخلاقي وضعف الروابط الاجتماعية والأسرية وسوء الجوار.

وممّا لا شكّ فيه أنّ إعادة الإعمار الاجتماعي في هذه المرحلة تتطلب جهودًا شاملة ومتكاملة، ليس فقط لمعالجة ما هو ظاهر من المشاكل، بل أيضًا للوصول إلى الجذور العميقة للأزمات التي رسّختها عقود من السياسات المدمّرة، مع الأخذ بالحسبان أنّ تكلفة هذا الإصلاح ليست ملموسة كتكلفة الإعمار المادي؛ لأنّها تتعلّق بمشكلات مدفونة في الوجدان الجمعي لشرائح كثيرة من السوريين.

وممّا يؤكّد أهمية تلك الجهود: أنّ الاستبداد والمجتمع المزق يُشكّلان معادلة مستعصية تحول دون نضوج أي حالة اجتماعية صحيّة؛ فالنظام المستبدّ بآلياته القمعية يعمل على تفتيت الروابط الاجتماعية وتعميق الانقسامات داخل المجتمع؛ ليضمن هيمنته -مدركًا أو غير مدركٍ- أنّ هذا التفكّك يهدّد أساسات الاستقرار على المدى الطويل.

ورغم إرث نظام الأسد البائد في تمزيق المجتمع السوري وإضعافه، إلّا أنّ حصر مسؤولية هذا الدمار به وحده ليس دقيقًا، خاصّة عند النظر إلى دور إيران وتغلغلها داخل سوريا على مختلف المستويات، فمنذ تدخّلها لم تكتفِ إيران بالدعم العسكري لنظام الأسد البائد، بل عملت بشكل منهجي على إعادة تشكيل البنية الاجتماعية السورية بما يخدم مصالحها[١]، مستغلّةً حالة الفوضى والانقسامات التي خلّفها النظام.

ولكن رغم محاولات إيران تأسيس جذور لها في المنطقة، إلّا أنّ مشروعها تبدّد سريعًا بعد تقدُّم الثوار السوريين لكونه لم يقم على أسس راسخة، لكنْ في ذات الوقت لا يمكن إغفال حقيقة أنّها كرّست في المجتمع إرثًا اجتماعيًا سامًّا وثقافات رديئة، مثل إظهار الولاء مقابل الامتيازات، كما صار الانتساب إلى مليشياتها بوابة للحصول على المساعدات أو التقرّب من السلطة، وهذا ما يُخشى من حدوثه في سوريا، وربما هذا ما ظهرت بعض آثاره بعد تحرير سوريا، مثل رفع صور رئيس المرحلة الانتقالية أحمد الشرع في الشوارع أو طباعتها على السيارات[٢]، وهو مؤشّر على بقاء عقلية التبعيّة والتزلّف كإحدى مُخلّفات المرحلة السابقة.

إلى جانب ذلك، لا يمكن إغفال الدور الكارثي لإيران في تحويل سوريا إلى مركز رئيسي لتجارة المخدّرات؛ حيث انتشرت مصانع ومراكز الترويج في العديد من المناطق[٣]، وباتت هذه التجارة أحد أعمدة تمويل ميليشياتها، وحتى بعد طرد إيران وهروب الطاغية بشار الأسد لا تزال الأخبار تتوالى عن ضبط مستودعات للمخدرات أو القبض على مُروّجين[٤]؛ ما يكشف حجم الضرر الاجتماعي الذي ألحقته بالمجتمع، ولذلك فإنّ أيّ مشروع لإعادة الإعمار الاجتماعي لا بدّ أن ينطلق من محاربة هذه الظاهرة، من خلال تكاتف المجتمع والدولة لدعم جهود القضاء عليها، وفق ما سيأتي في هذا المقال.

وللخروج من هذ الواقع الصعب لا بدّ من تفعيل جهود متعدّدة ومتكاملة تسعى نحو البناء والإصلاح ومحاربة الظواهر الفاسدة وترميم العلاقات بين مكوّنات المجتمع، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

> **مما لا شك فيه أنّ إعادة الإعمار الاجتماعي في هذه المرحلة تتطلب جهودًا شاملة ومتكاملة، ليس فقط لمعالجة ما هو ظاهر من المشاكل، بل أيضًا للوصول إلى الجذور العميقة للأزمات التي رسّختها عقود من السياسات المدمّرة، مع الأخذ بالحسبان أنّ تكلفة هذا الإصلاح ليست ملموسة كتكلفة الإعمار المادي؛ لأنّها تتعلّق بمشكلات مدفونة في الوجدان الجمعي لشرائح كثيرة من السوريين**

(١) التغلغل الثقافي الإيراني في سوريا (٢): الأدوات التعليمية والاجتماعية، مرجع سابق.

(٢) انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي صور تظهر أعلامًا سورية مطبوعة ومكتوب عليها عبارات تشيد بأحمد الشرع، وهو ما حذر منه سوريون، معتبرين أن مثل تلك الممارسات لا تختلف عن ثقافة تمجيد الأشخاص في حقبة النظام البائد.

(٣) كيف تفوّق «كبتاغون الأسد» على إرث أساطير المخدرات؟، الحرة، ٢٠٢٤/١٢/١٦م.

(٤) ضبط مستودع مخدرات جديد بريف دمشق تابع لماهر الأسد، الجزيرة نت، ٢٠٢٥/١/٢١م.

ومن هنا، تُطرح خطوات عاجلة وضرورية لإعادة الإعمار الاجتماعي في سوريا بالتوازي مع إعادة إعمار البنيان، لعلّ من أبرزها:

» عودة أهل العلم: استعادة الدور المحوري في بناء المجتمع السوري الجديد:

من المهم أن يكون للدعاة وأهل العلم حضورٌ بارز يعكس الدور الحقيقي الذي أضعفه النظام البائد عمدًا؛ فقد عمل طوال عقود على تحجيم دور العلماء والدعاة، ولاحق المصلحين منهم، وجعل المؤسسة الدينية مجرّد أداة رديفة لسياساته الأمنية والقمعية[١]؛ ما أضعف الثقة بها لدى أغلبية السوريين، وأدّى إلى تراجع دورها الفاعل في المجتمع، ولذلك فإنّ العودة إلى الداخل السوري -لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً- تُتيح فرصة لإعادة تقديم الدعاة والعلماء كقدوة مؤثّرة وصادقة، تعمل بعيدًا عن أيّ استغلال سياسي أو أمني.

ومن المهم الإشارة إلى أنّ دور العلماء والدعاة لا ينبغي أن يقتصر على توجيه الرسائل عبر وسائل التواصل الاجتماعي أو على العمل وفق النموذج التقليدي حول النصح والإرشاد فقط[٢]، فهو مع أهمّيته يجب أن يشمل دورًا أوسع يتمثّل في الاحتكاك بالمجتمع لمعرفة مشاكله الحقيقية خصوصًا أنّ المشاكل قد تختلف من مدينة إلى أخرى ومن حيّ إلى آخر؛ وذلك لإعادة بناء الثقة بين أفراده وتعزيز قيم التراحم ونبذ العصبيات والانقسامات التي خلّفتها سياسات النظام البائد.

كما يجب أن تكون هناك خارطة واضحة لاستهداف المناطق السورية، فعلى الرغم من الأهمية الكبيرة التي تحظى بها مدينتا دمشق وحلب والكثافة السكانية فيهما، إلا أنّ التركيز المفرط عليهما -بحسب ما يُلاحَظ- يُغفِل حاجات المناطق الأخرى التي تفتقر إلى وجود العلماء والدعاة المؤثّرين، وخاصة في المدن الريفية.

ولا يعني هذا الطرح أنّ مهمّة الإصلاح تقع على عاتق العلماء والدعاة وحدهم، بل المقصود هو إعادة الاعتبار لدورهم بما يُعزّز من مساهمتهم في عملية الإصلاح الشاملة، فمن دون شك أنّ إعادة بناء المجتمع السوري بعد عقود من القمع هي مسؤولية جماعية تتقاطع فيها الجهود السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية، وتستلزم تعاون النخب السياسية والمثقفين والتربويين والخبراء في مختلف التخصُّصات العلمية -إلى جانب أهل العلم- لتحقيق النهضة المرجوّة.

> **ينبغي ألا يقتصر دور العلماء والدعاة على توجيه الرسائل عبر وسائل التواصل الاجتماعي أو على العمل وفق النموذج التقليدي حول النصح والإرشاد فقط، فهو مع أهمّيته يجب أن يشمل دورًا أوسع يتمثل في الاحتكاك بالمجتمع لمعرفة مشاكله الحقيقية، خصوصًا أنّ المشاكل قد تختلف من مدينة إلى أخرى ومن حيّ إلى آخر؛ لإعادة بناء الثقة بين أفراده وتعزيز قيم التراحم ونبذ العصبيات والانقسامات التي خلّفتها سياسات النظام البائد**

» تعزيز العمل الأهلي: ركيزة لتقوية المجتمع وترميم الفجوات الاجتماعية:

حثّ الإسلام على التكافل الاجتماعي[٣]، واعتبر العمل الخيري من أسمى أشكال التعاون بين الأفراد في المجتمع، وقد جاء التأكيد على هذا المبدأ في العديد من النصوص الشرعية مثل قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، كما قال النبي ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[٤].

وفي ظلّ التحدّيات الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة التي يُواجهها المجتمع السوري بعد مرحلة النظام البائد، تبرز أهمية تعزيز العمل الأهلي والمبادرات المحلّية التي قد تُسهم في تخفيف المعاناة اليومية للكثير من السوريين الذين يعانون من أوضاع اقتصادية قاسية، خاصّة أنّ الحرب

(١) المؤسسة الدينية والنظام السوري: مشايخ في خدمة الأسد، العربي الجديد، ٢٠٢١/٦/٧م.

(٢) ليس المقصود التقليل من أهمية النصح والإرشاد والمحاضرات التوعوية، ففيها من الخير الكثير، لكن الظرف القائم في سوريا يتطلّب ما هو أوسع من ذلك عبر الاحتكاك بالناس ومعرفة مكامن الخلل في المجتمع.

(٣) كثيرة هي صور التكافل التي تتجلّى بالتعاون والتآزر، وتقديم العون والحماية والنصرة والمواساة، وقضاء الحاجات وتنفيس الكربات، وغير ذلك، ينظر: التكافل عنوان المجتمع المتماسك، إسلام ويب، ٢٠٠٨/٥/١م.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

أفرزت أعدادًا كبيرة من الأرامل والأيتام والمعاقين الذين لا يملكون المعيل، ومن هنا يتجلّى الدور المهمّ للمبادرات الخيرية التي تُركّز على تقديم الدعم المباشر للأسر الفقيرة، ويُستحضر قول النبي ﷺ: (من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة)[١].

إنّ تكثيف المبادرات المحلّية؛ مثل إنشاء صناديق خيرية تهدف إلى تقديم الدعم للفئات الأكثر ضعفًا وهشاشة في المجتمع[٢] هو جزءٌ من هذا الواجب الاجتماعي الذي يحثّ عليه الإسلام، ومن المعروف أنّ أهل الشام بطبيعتهم يتأثّرون إيجابًا بمثل هذه المبادرات ويدعمونها على غرار ما حصل مثلاً بعد زلزال شباط ٢٠٢٣[٣]، سواء في إطار العائلات أو من خلال الجمعيات الخيرية التي تُعزز روح التعاون والمشاركة في المجتمع، وتساعد على نهوض القيم وبناء التماسك الاجتماعي وإعادة تأسيس العلاقات الطيبة بين أفراد المجتمع[٤].

» بناء الثقة بين السلطة والشعب.. ركيزة أساسية في الإعمار الاجتماعي:

بناء الثقة بين الشعب والسلطة الجديدة بكافّة مؤسساتها يُعدّ ركيزة أساسية لإعادة الإعمار الاجتماعي والسياسي في سوريا بعد سقوط النظام البائد، فقد شكّلت سياسات النظام البائد وما فيها من القمع والفساد والاستبداد حاجزًا كبيرًا بين المواطن والسلطة، وهو ما أدّى إلى انعدام الثقة بالسلطة، وهذا بدوره ينعكس على فهم المواطنين لدور الدولة حاميةً لحقوقهم وضامنة لمصالحهم، ويؤدّي لحدوث خلخلة في المجتمع، ويشيع حالة الفساد والمحسوبيات.

وبينما يُطالَب المواطنون بالثقة بالسلطة الجديدة وتنصبّ جهود بناء الثقة على السوريين، إلّا أنّه يجب أن تقود السلطة نفسها هذا التغيير من خلال: فتح أبوابها بشكل حقيقي للجميع وعدم اقتصار لقاءاتها ومبادراتها مع النخب الاقتصادية والسياسية[٥]، بل يجب أن يكون التواصل مع المواطنين من جميع الفئات مفتوحًا، والاعتراف ببعض الأخطاء الجوهرية التي وقعت وتصحيحها[٦]؛ لأنّه إذا اقتصرت الدولة على التعامل مع النخب فقط فسيكون ذلك بمثابة إعطاء مؤشّرات سلبية تضعف من مستوى ثقة الأفراد بالمؤسسات العامّة؛ ما سيؤدّي إلى إعادة إنتاج الفجوات نفسها التي أوجدها النظام البائد بين الشعب والدولة.

ومن أجل تقليص هذه المسافة وإعادة بناء الثقة، ينبغي العمل على تغيير المفاهيم والثقافات السائدة عن الدولة ودورها، وهذا يتطلّب جهدًا مشتركًا من النخب الفكرية والدعوية الذين يمكنهم تسليط الضوء على أهمّية الدولة كعامل رئيسي في بناء المجتمع وضمان استقراره، وهنا يبرز دور المثقّفين السوريين في تحديد أولويات مراحل استعادة الثقة، وعلى رأس تلك الأولويات: فتح قنوات تواصل فعليّة مع الجمهور السوري بمختلف مكوّناته وأطيافه، والاستماع لها ومناقشتها بما يساعد بدايةً على التعرُّف على رؤاهم وأفكارهم، والعمل على تقديم حلول فعلية وواقعية لمشاكل الشعب، مع السعي لتبديد الصورة السوداوية التي كرسها نظام البعث عن المثقفين في أذهان السوريين[٧].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) للتوسّع ينظر: الاستثمار الاجتماعي ودوره في حلّ إشكاليات التنمية، مركز الحوار السوري، ٢٠٢٥/١/٤م.

(٣) حينها مثلاً كانت هناك مبادرات محلّية واسعة في شمال غرب سوريا، حيث تمّ دعم المتضرّرين واقتسام الطعام والشراب والخيمة معهم من قبل الكثير من سكان المنطقة رغم الضيق والعوز وقلّة الإمكانيات، يُنظر مثلاً: (فزعات حوران تجمع أكثر من ملياري ليرة لمتضرري الزلزال في الشمال السوري، تلفزيون سوريا، ٢٠٢٣/٢/١٩م)، وأيضًا (على وقع الزلزال.. شبكات إنترنت مجانية شمال غربي سوريا، عنب بلدي، ٢٠٢٣/٢/٢٦م.)، وأيضًا (انتشال أحياء بعد أسبوع من الزلزال... وجامعيون يشكّلون مطبخًا متنقلاً وفرقًا تطوعية، القدس العربي، ٢٠٢٣/٢/١٣م.)

(٤) قدّم الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- الكثير من النصائح حول سبل الإصلاح في مراحل ما بعد الاستقلال، للتوسع ينظر: مع الطنطاوي (في سبيل الإصلاح).. لنكون جميعًا مشاريع إصلاح، د. ياسين جمول، المجلس الإسلامي السوري، ٢٠٢١/١/٤م.

(٥) مما لا شكّ فيه أنّ هناك أهمية للقاءات مع رؤوس الأموال والنخب الاقتصادية والسياسية لدعم جهود الدولة في النهوض، لكنّ البعض كان ينتقد اقتصار اللقاءات على مثل تلك الشرائح، وعدم الانفتاح مثلاً على المعتقلين المحررين أو الشرائح الأكثر تضررًا من الحرب والتي هي بحاجة للمساعدة العاجلة، ومن هنا يأتي دور الدولة الحقيقي في الوقوف مع أوجاع الشعب بحسب الإمكانات المتاحة.

(٦) وهنا يجدر الحديث عن خطوة إيجابية للحكومة في هذا المسار؛ فبعد أن انتقد الكثير من الطلبة في الجامعات الخاصّة في مناطق الحكومة المؤقّتة (التابعة للائتلاف سابقًا) ما اعتبروها حالة التمييز التي حصلت بحقّهم؛ حيث لم يتم الاعتراف بالجامعات من قبل وزارة التعليم العالي في حكومة تصريف الأعمال رغم أنّه تمّ الاعتراف بنظيراتها من الجامعات الخاصة في منطقة إدلب؛ تراجعت وزارة التعليم العالي وأصدرت قرارًا بالاعتراف بكافّة جامعات الشمال السوري.

(٧) أولويات المثقّفين السوريين في مرحلة ما بعد سقوط نظام الأسد.. استعادة الثقة المُمهّدة للفاعليّة، أحمد قربي، ٢٠٢٥/١/١م.

كما يأتي هنا دور وسائل الإعلام الرسمية للدولة الجديدة في تعزيز الثقة بشرط أن تبتعد عن أساليب التملّق والترويج الدعائي، وأن تُسلّط الضوء على المشاكل مثلما تُركّز على الإنجازات، وأن تسعى لتوصيل رسالة واضحة مفادها أنّ الدولة الجديدة لا تسعى إلى السيطرة، بل إلى خدمة المواطن وبناء الإنسان وتحقيق العدل امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

بناء الثقة بين الشعب والسلطة الجديدة يُعد ركيزة أساسية لإعادة الإعمار الاجتماعي والسياسي في سوريا، فقد شكّلت سياسات النظام البائد وما فيها من القمع والفساد والاستبداد حاجزًا كبيرًا بين المواطن والسلطة، وهو ما أدّى إلى انعدام الثقة بالسلطة، وهذا بدوره ينعكس على فهم المواطنين لدور الدولة حاميةً لحقوقهم وضامنة لمصالحهم، ويؤدّي لحدوث خلخلة في المجتمع، ويشيع حالة الفساد والمحسوبيات والواسطات والرشوات

إصلاح النظام التعليمي: أساس بناء أجيال جديدة بعقلية واعية وقيم راسخة:

يُعدّ إصلاح النظام التعليمي من الخطوات الجوهرية لإعادة بناء سوريا على أسس متينة، وإن كان الحديث عن تعديل المناهج التعليمية بنظر البعض خطوة مبكّرة في ظلّ الأولويات الملحّة للحكومة الجديدة، إلا أنّ العمل عليه منذ الآن ضرورة لا تحتمل التأجيل، فقد عانى النظام التعليمي السوري لعقودٍ من سيطرة الأيديولوجيا البعثية التي استهدفت غرس أفكار التبعية للنظام البائد بدلاً من تعزيز التفكير النقدي والقيم المجتمعية الأصيلة.

عمل النظام التعليمي في عهد الأسد الأب الهالك والابن المخلوع على تكريس تمجيد ثقافة الانتماء للأشخاص فوق الانتماء للوطن، وكان الطلبة قبل الدخول إلى صفوفهم الدراسية يُردّدون شعارات بعثية زُرِعت قسرًا في وجدانهم في تعزيز لثقافة التلقين، كما اقترن هذا بوجود مواد دراسية مُخصّصة لتضخيم رموز النظام البائد وخاصة حافظ الأسد في مادة القومية، وإظهاره كـ «رمز خالد» حتى في بعض المواد الأخرى مثل اللغة العربية التي لم تخلُ بعض دروسها من تخصيص حصص دراسية تُمجّد «إنجازاته».

وكان كلّ ذلك التوجيه الفكري جزءًا من استراتيجية مدروسة تهدف إلى صناعة الولاء المطلق للنظام، حيث تم الزجّ بالأطفال والطلاب في منظمات مثل: «طلائع البعث» و«اتحاد شبيبة الثورة» و«اتحاد الطلبة»، والتي لم تكن سوى أدوات لغسل العقول وتدريب النشء على الطاعة العمياء، بعيدًا عن أيّ فضاء يسمح لهم بالتفكير الحرّ، وبذلك تحوّل التعليم في ظل النظام البائد إلى أداة لتكريس الاستبداد، وقتل روح المبادرة والإبداع لدى السوريين منذ طفولتهم.

لذلك يبدو من المهمّ تشكيل لجان علمية مُتخصّصة تعمل على إعداد مناهج تعليمية جديدة تُركّز على إزالة رواسب تلك الأيديولوجيا، مع وضع رؤية مستقبلية تُعزّز في الطلاب القيم التي حثّ عليها الإسلام، كما أنّ إصلاح المناهج لا يعني فقط التخلُّص من أفكار النظام البائد، بل يتطلّب التركيز على بناء منظومة تعليمية تُغرس فيها القيم الإيجابية والمهارات الحياتية، ومن المهم أن تتضمّن المناهج الجديدة مواد تربوية تُحفّز على الإبداع، والعمل الجماعي بما يُسهم في تنشئة أجيال قادرة على مواجهة التحدّيات وبناء سوريا المستقبل.

أحد المحاور الأساسية في إصلاح النظام التعليمي يتمثّل في إعادة الاعتبار لمادة التربية الدينية التي همّشها النظام البائد عمدًا ولم يكن يحتسبها ضمن المجموع العام في شهادة الثانوية؛ ما أضعف قيمتها في نظر الطلاب والمجتمع، ولذلك ينبغي أن تحظى هذه المادّة بأهمية أكبر في المناهج الجديدة، بحيث تُقدَّم برؤية متوازنة تغرس القيم الأخلاقية وتُعرّف بأسس العقيدة الصحيحة التي كان الحديث عنها محظورًا طيلة حكم البعث؛ ما ترك فراغًا بقضايا جوهرية في الدين الإسلامي لدى الطلبة.

وفي الوقت ذاته ومع إدراك التنوّع الديني في سوريا يمكن معالجة هذا الملف بحكمة لضمان تعزيز الحرّيات، بحيث يتم تخصيص مناهج دينية مستقلة تُدرَّس -بمعزل عن الطلبة المسلمين- لغير المسلمين، بما يتناسب مع عقائدهم وتوجّهاتهم،

فمثل هذا التوجُّه يراعي التنوع السوري ويحترم الخصوصيات الدينية دون إغفال حقيقة أنّ الأغلبية الساحقة من الطلاب في سوريا هم من المسلمين؛ ما يجعل التركيز على التربية الإسلامية ضرورة لتعزيز الهوية الوطنية الجامعة، مع بناء روح التفاهم والتعايش بين جميع المكونات.

> **إصلاح المناهج لا يعني فقط التخلُّص من أفكار النظام البائد، بل يتطلّب التركيز على بناء منظومة تعليمية تغرس فيها القيم الإيجابية والمهارات الحياتية، ومن المهمّ أن تتضمن المناهج الجديدة مواد تربوية تُحفّز على الإبداع والعمل الجماعي بما يُسهم في تنشئة أجيال قادرة على مواجهة التحدّيات وبناء سوريا المستقبل**

» مراكز الحوار المجتمعي: منصّة لتعزيز التفاهم وتوليد الحلول:

ربما تُعد مراكز الحوار المجتمعي فكرة جديدة على السوريين نظرًا لأنّ النظام البائد كان يمنع مثل تلك الأنشطة المجتمعية إلّا ما كان يصبّ في الترويج لسياساته، لكن اليوم يبدو من المهم إعادة التفكير بالعمل على إنشاء مثل تلك المراكز لكونها تُتيح مساحة آمنة لتبادل الأفكار وتسليط الضوء على أبرز التحدّيات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تواجه السوريين.

وتُستلهم فكرة هذه المراكز من ديننا الحنيف الذي يحثّ على الشورى والتواصل كقيم أصيلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وهو ما يعكس أهمّية الاستماع للرأي الآخر والبحث عن الحلول عبر التفاهم المشترك، ولهذا فإنّ تأسيس مراكز الحوار المجتمعي لا يقتصر على كونه إجراءًا تقليديًا، بل هو انعكاس لروح الإسلام التي تدعو إلى التراحم والبحث عن المصلحة العامة.

فمن خلال الحوار البنّاء يمكن للمشاركين تطوير معارفهم، وتعزيز ثقافتهم، وربما توليد أفكار جديدة تُسهم في معالجة المشكلات المشتركة، كما أنّ هذه المراكز قد تتجاوز دورها التوعوي إلى تقديم توصيات ومطالب إلى السلطات المحلّية عبر لجان مختصة في حال تطوير عملها وتنظيم جهودها بما ينسجم مع احتياجات المجتمع؛ ما يؤدّي بالنتيجة إلى إطلاق سهم جديد من أسهم إعمار المجتمع بجهود محلّية خالصة.

وليس ذلك فحسب، بل إنّ هذه المراكز قد تُسهم في تسليط الضوء على مشاكل مجتمعية متكرّرة مثل ظاهرة التسوّل والمخدّرات وسبّ الذات الإلهية وغيرها من المشاكل التي قد تختلف من منطقة لأخرى، ما قد يساهم في إيجاد الحلول المناسبة لمواجهة تلك الآفات، بحيث لا تصبح ملقاة فقط على عاتق السلطات المحلّية التي قد لا تكون لديها الموارد الكافية لمتابعة كلّ تلك الأزمات.

خاتمة:

إنّ الإعمار الاجتماعي لا يقلّ أهمّية عن الإعمار المادّي في بناء سوريا المستقبل، فإعادة بناء المجتمع السوري بعد سنوات من التفكّك والتدمير تحتاج إلى إعادة إحياء الروابط الاجتماعية وتعزيز القيم التي تربط بين أفراد المجتمع، ولا يمكن أن يستقيم المجتمع إذا تمّ التركيز فقط على إعادة إعمار البنيان وظلّت الروابط الاجتماعية ضعيفة أو مفككة.

ولا بدّ من التأكيد على أنّ تعزيز القيم المجتمعية التي حثّ عليها الإسلام مثل التعاون والتكافل والشورى، والعمل على محاربة الظواهر السلبية؛ هو جزء من عملية الإعمار التي تساهم في بناء وطن جديد، مع الإشارة إلى أنّ هذه المهمّة ليست مقتصرة على السلطات، بل تتطلب جهودًا جماعية من النخب الفكرية والدعوية والاقتصادية التي يجب أن تساهم في إعادة الحياة للمجتمع وبناء الثقة بين المواطن والدولة.

ومن المهمّ أيضًا التأكيد على أنّ أيّ جهد -مهما كان صغيرًا- لا ينبغي الاستهانة به في عملية الإعمار الاجتماعي، فحتى أبسط المبادرات المحلّية أو الجهود الفردية يمكن أن تُشكّل لبنة أساسية في إعادة إعمار الإنسان، خصوصًا أنّ تراكم هذه الجهود الصغيرة يعزّز من الإحساس بالمسؤولية الجماعية ويُسهم في تحسين الحالة المجتمعية بشكل تدريجي.

آثار منهج المقارنة في التربية والحث على الطموح

أ. هدى عبد الرحمن النمر (*)

شحذ الهِمّة وإذكاء المنافسة والحثّ على الطموح له بين الناس أساليب متنوّعة، منها: أسلوب المقارنة بالآخرين، وهذا الأسلوب له مساوئ كثيرة على المستويين الفردي والمجتمعي، فما الأسباب التي تجعله كذلك؟ وما أثره في نطاق الأسرة على وجه الخصوص؟ وما البديل عنه من الهدي النبوي؟ هذا ما سيجيب عنه هذا المقال

مدخل:

الطموح لغة هو شدّة التوق والرغبة لتحقيق شيء[1]، والشخص الطَّموح هو: السَّاعي برَغبةٍ للحصول على ما هو أعلى ومحمودٌ ونبيلٌ[2]. ومع أنّه مرتبط بالأساس ببواعث الفرد الداخلية كما يتّضح من التعريف، إلا أنّ الثقافة السائدة أكثرت من الربط بين الطموح والمقارنة بالآخرين، فبدل التطلّع للمعالي نفسها صار التطلّع لما عند الغير ومنافستهم في مختلف المجالات، باعتبار هذه المقارنات وسيلة شحذ للهمم وبعث للعزائم!

والحقّ أنّ الطموح مرهون أولاً بحِسّ مسؤولية الفرد عن حياته وجدّيته في استثمارها وتعظيمه لشأن قيامه لربّه يوم الحساب، ومرهون ثانيًا بطاقات المرء وسياقه وظروفه، ومرهون ثالثًا بتطلّع الذات للمعالي، لا التطلّع لذات الآخرين ولا لذات مطامحهم بعينها. والمعالي في هذا السياق وصفٌ ينطبق على كلّ موصِل لمرضاة الله وامتثال أمره في كونه، فأبوابها أكثر من أن تُحصى على أساس ثُلّة مجالات مشهورة، وآفاقها أرحب من أن تُقصَر على بضعة قوالب عرفية.

(*) كاتبة ومؤلّفة ومتحدِّثة في الفكر والأدب وعُمران الذات.

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، ص (١٤١٤).

(٢) المعجم الغني، ص (١٧٣٥٥).

المنافسة والمسابقة والمسارعة:

وردت لفظة التنافس في القرآن مرّة واحدة، في قوله تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وسوى ذلك استُعملت ألفاظ «المسابقة» و«المسارعة»، وسياقاتها جميعًا في القرآن والسنّة تدعو دعوة عامّة للمسارعة في الخيرات إجمالاً، والمسابقة لرضوان الله تعالى بمختلف الصور، حيثما تبدّى لكلّ أحد بما يستطيع، وعليه سيتفاضل الناس بالضرورة بحسب استطاعة كلّ منهم وقوة أدائه في كلّ مجال بحسبه، لكنّ العبرة أن يظل الكلّ مسارعًا مسابقًا منافسًا بأحسن ما يستطيع هو.

ولا تدعو تلك المفاهيم أبدًا لعقد المقارنات المحمومة والسباقات المستميتة مع الآخرين على نحو ما يجري اليوم، بل جُلُّ ما تدعو إليه -وهو ما لا نطبّقه حقيقة- أن تبذل من نفسك لنفسك، وتكون جادًّا في مسؤوليتك عن حياتك، نافعًا ومنتفعًا فيها. هذا هو تصوّر التفوّق المطلوب، سواء تجلّى بعد ذلك في ريادة قوم أو خدمتهم، وفي كثرة عَرَض أو زُهد حال، زُمَرًا أو فُرَادَى... إلخ.

وقد جاءت لفظة التنافس بمعنى مذموم في قوله ﷺ: (فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنّي أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على مَن قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتُهلككم كما أهلكتهم)[1]. وفي حديث آخر: (لا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا تنافسوا، وكونوا عباد الله إخوانًا)[2].

وهي في كلا السياقين بمعنى مدّ العينين للغير حسدًا وحقدًا، فهي داخلة في معنى المقارنة المذمومة التي تدفع المرء لمقايسة ما عند غيره بما ليس عنده، فلا يملأ عينه وقتها ما عنده ولا تهدأ نفسه لما حاز غيره. جاء في فتح الباري لابن حجر: «والتنافس من المنافسة وهي الرغبة في الشيء ومحبّة الانفراد به والمغالبة عليه، وأصلها من الشيء النفيس في نوعه... قال ابن بطال: فيه أنّ زهرة الدنيا ينبغي لمن فُتحت عليه أن يحذَرَ مِن سوء عاقبتها وشرّ فتنتها؛ فلا يطمئن إلى زخرفها ولا ينافس غيره فيها»[3].

> **المنافسة المحمودة هي المسابقة والمسارعة في الخيرات والصالحات وفق الطاعة والاستطاعة، دون مقارنات تُفضي إلى غلّ وحقد وحسد بين المتنافسين**

آفات اتخاذ الآخرين مقياسًا:

أمّا اتخاذ أحوال الآخرين حولنا مقياسًا لتحديد نجاحنا أو فشلنا نحن، واتخاذ مسابقتهم للاستعلاء عليهم غاية؛ فتلك وجهة أخرى تمامًا، وفي غالب الأحيان لا تثمر الأثر المزعوم من التحفيز للترقّي والدفع للمعالي، بل تُورث الغَيْرة والغِلّ والحسد، والحسرة والقعود، والتشتّت والتذبذب، وغيرها من الآفات القلبية النفسية التي لا تنتمي للمعالي بحال، مهما حصَّل صاحبها عَرَضًا من جاه مؤقّت ووجاهة ظاهرة. وأظهرُ نتائج ذلك النهج المُعوَجّ: اكتفاءُ الناشئ بعُلوّه على مَن حوله وظنّه بذلك أنّه بلغ المُنتهى، فلا تكون له أدنى عناية حقيقية، ولا أيّ دافع داخليّ لصقل مهاراته وتَوسعة علومه وعمران ذاته؛ إذ طالما الأعور في بلد العُميَان مَلِك، فلماذا سيجازف بالخروج لأهل الإبصار فيَظهر عَوَره؟

وتأمّل كيف يكون طالبٌ متفوّقًا دراسيًّا طوال الموسم المدرسي، ثم لا يكاد ينفصل عن الكنبة في الإجازة الصيفية ولا يتزحزح من أمام التلفاز، أَوَليسَ قد حصّل ختم تفوقه «مقارنة» بغيره؟ فما أهمية أن يكون هو في نفسه جادًّا أو يجتهد حيث لا مُصفّقين ولا مقارنات؟ بل إنّ ذلك المتفوّق لعلّه يسأم من ممارسة القراءة أو طلب العلم، ويتلكّأ في الفراش ساعات فوق نوم الحاجة خمولاً وفراغًا، ويتحيّن الفرص لتضييع الأوقات... فعن أيّ تفوّق نتحدث؟ وأيّ طموح للمعالي يُرتجى من نفسٍ انطبعت على ذلك النهج؟ صار «الرسوخ العلمي» مفهومًا تراثيًّا غابرًا، حظّنا منه اليوم تنشئة الأطفال على «تكويم» الدرجات و«تجميع» الشهادات، وحصد الثناءات، وارتفاع الترتيب مقارنة بالأقران، فإذا تمّ ذلك اعتُبر هذا التفوّق العلمي المنشود، ولو لم يتطلّب إلا حفظًا أصمّ قُبيل الامتحانات، وتفريغًا أعمى في ورقاته. فهل من عجب بعد ذلك أنّ غالب المتفوّقين على مدى سنوات الدراسة هم أوّل مَن يتعثّرون على أعتاب المتطلّبات الجامعية أو المسار المهني؟ إذ يكتشفون

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٣).
(٣) فتح الباري، لابن حجر (٢٤٥/١١).

أنّ طاقاتهم الخارقة في الحفظ الأصمّ والتفريغ السريع في الامتحان لا تكفي لإنشاء مقالة سليمة اللغة جيدة الأسلوب، ولا لفهم متطلّبات البحث العلمي، ولا لاستيعاب تداخلات العلوم وتطبيقاتها، ناهيك عن القدرة على التأصيل والتجديد فيها.

والأدهى من كلّ ذلك أن اتُّخذ الاشتغال بالتنافس والسباق المحموم وسيلة هروبية من مواجهة المرء لنفسه ودراسة ظروفه وتعيين الأصلح في نهج حياته ومعاشه ولو خالف السائد حوله، والـمُجمَع عليه من أقرانه! وأسهل ما تهرب إليه النفوس عند مواجهة الأسئلة المصيريّة حول جدوى الوجود وجودة أهداف الحياة وطموحاتها ومدى الجدية فيها: الانغماس التلقائي في القوالب الحياتية الجاهزة، والتشتّت وسط فوضى تعقيد متطلبات العيش وتضييع متطلبات الحياة، وفرض معايير نجاح وإنجاز في الدنيا غير التي تراد لها الدنيا وعلى أساسها الحساب الأبديّ، وشحن الأوقات بإنجازات طنّانة المظهر هزيلة الجوهر، ثم هزّ الكتفين في نهاية اليوم باستسلام، واعتقاد أنّ هذا أفضل ما يمكن، لأنّ محاولة أيّ شيء غير ذلك الممكن سيتطلب جهدًا صادقًا وبَذلاً جادًّا ومسؤولية فرديّة.

ونحن نخشى الصدق، ونفزع من المسؤولية، ونهرب من قدر الحرّية الممنوح لنا؛ لأنّها ليست الانفلات بلا عَنان حقيقة، بل قرار جادّ بشأن ما ستفعله بهذه الحرّية، ثم هذا القرار مسؤولية، والمسؤولية من بعد التزام بما اخترت. ونحن لا نريد أن «نلتزم» حقيقة بما اخترنا، بل نريد أن نختار اختيارات لا نتحمل كُلفَتها، ونتلذّذ بثمار لم نستجلبها بعرقنا. ومن هنا يطمئننا زَيف تصدّر الأعور وسط العميان، ويُخَدِّر ضمائرنا تصنّع بذل المجهود في غير جهد حقيقي، ويُخفِت نداء المسؤولية الفطريّ فينا أن نتبع القطيع والقوالب الجاهزة، وننفق أعمارنا في ركاب الآخرين واقتفاء آثارهم؛ لأنّها نفقة واضحة النتائج ويسيرة الجهد، وإن كانت باهظة العواقب قاتمة العوائد!

> **نحن نخشى الصدق، ونفزع من المسؤولية، ونهرب من قدر الحرية الممنوح لنا، لأنّها ليست الانفلات بلا عَنان حقيقة، بل قرار جادّ بشأن ما ستفعله بهذه الحرية، ثمّ هذا القرار مسؤولية، والمسؤولية من بعد التزام بما اخترت**

المقارنة أداةً تربوية:

لذلك كلّه كان أردأ التربية ما يقوم على شحذ هِمّة النشء من خلال مقارنتهم بغيرهم، فهي تعتمد بالأساس على تحفيزهم بإذكاء دافع التميّز على أقرانهم؛ لأنّها تربط أهمّ قيمتين داخليّتين أساسًا «الدافع والهمّة» بمعايير خارجية وموسميّة، أيْ وقتَ حضورِ الناس أو توافر متفوقين يثيرون حسَّ التحدّي، فتتحوّل العملية التربوية من قصد تشكيل بِنيَة الشخصيّة وصياغة هُويّة الفرد في نفسه، إلى عرض مسرحي عمومي غايته التفاخر والتباهي، وشتّان بين التربية على نهجِ حياةٍ وصياغةِ شخصيّةٍ ستنطبع على ما تعوَّدت عليه في خاصّة نفسها، والتربية على النظر للغير بمعيارية لا يستحقّها ذلك الغير غالبًا، وصياغة شخصية تنطبع على افتراق الظاهر عن الباطن، وبذا نشأت أجيال على ظاهرة تَعاكُس العلانية أمام الناس مع السرِّ في الخَلوَة وقعر الدار، وأن يكون العيب أعلى قدرًا من الحرام ورؤية الخلق أشدّ رعاية من اطلاع الخالق!

وعليه، فأسلوب المقارنة الشائع في المدارس وبين الإخوة من أبعد الأساليب عن النفع التربوي وأكثرها سوءًا في العاقبة؛ لأنّ اختصاص فئة بألقاب «الأمثل» أو «الأول» أو «الأحسن» أو غيرها من «أفعل» التفضيل، وترك غيرهم هملاً، أو حتى اختصاصهم بألقاب التفضيل في المساوئ، مثل الأكثر مشاغبة والأكثر بلادة؛ ترسل رسائل نفسيّة للناشئة أنّ فئة قد احتكرت أسباب الفضائل، وبالتالي لم يعد لغيرهم من العوامّ سوى القوالب العكسية من الفوضى والمشاغبة أو البلادة والكسل! ومن ثَمّ يتّجهون لترسيخ هذا الصفات السلبية في أنفسهم من باب «العناد» تارة، ومن باب الغَيْرة التي يُغلِّفها باللامبالاة الظاهريّة تارة أخرى، والمنشأ في كلتا الحالتين هبوط نفسي في استشعار قيمة ذاته بوصفه فردًا أكرمه الله بالوجود وامتحنه به، وهمود استشعار مسؤوليته الفرديّة عن جودة وجوده، وتلاشي استشعار أواصر الترحاب والانتماء الأسري أو الاجتماعي الذي يشجّع الفرد على أن يسمو لصالحِ مجموعٍ لا يُحِسّ أنّه منهم!

أمّا الأسلوب التربوي النبوي فنجد أنّه يُقرّ لكلّ فرد بميزته، ويحلل كلّ شخص على أنّه نسيج وحده، ويُثني على مناقبه باعتباره فردًا فاضلاً في نفسه لا الفرد الأفضل دون غيره، ولا يتعارض هذا مع ثبوت مكانة مخصوصة لبعضهم دون بعض، لكن يظلّ لكلّ مساحة سبقه وسَعَة للثناء عليه بما

فيه، من ذلك قوله ﷺ: (أرحمُ أُمتي بأُمتي أبو بكر، وأشدّهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأفرَضُهم زيد بن ثابت، وأقرؤُهم لكتاب الله أُبيّ بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإنَّ لكلِّ أمة أميناً، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح)[1]. هذا النهج يُشعِر النفوس بالتكاملية السَّوية دون حَسَد ولا غلّ، ويستجيش بينهم حسّ التعاون الصادق غير الـمُفتَعل، والشعور الصادق بالانتماء الجماعي جنبًا إلى جنب مع التمايز الفردي.

أسلوب المقارنة الشائع في المدارس وبين الإخوة من أبعد الأساليب عن النفع التربوي وأكثرها سوءًا في العاقبة؛ لأنّ اختصاص فئة بألقاب «الأمثل» أو «الأول» أو «الأحسن» أو غيرها من «أفعل» التفضيل، وترك غيرهم هملاً، أو حتى اختصاصهم بألقاب التفضيل في المساوئ، مثل الأكثر مشاغبة والأكثر بَلادة، ترسل رسائل نفسيّة للناشئة أنّ فئةً قد احتكرت أسباب الفضائل، وبالتالي لم يعد لغيرهم من العوام سوى القوالب العكسية من الفوضى والمشاغبة أو البَلادة والكسل!

لفتة تربوية للوالدين في المقارنة بين الإخوة:

من أخطر وسائل بذر بذور الشقاق بين الإخوة: اعتماد المقارنة بينهم أسلوبًا في التربية؛ فيعمد أحد الوالدين أو كلاهما لعقد المقارنات الـمُفسِدة بين الإخوة، أو يعمد لدوام المفاضلات المثيرة للغَيْرة، أو يتّخذ من أحدهم مَثلاً مُلزِمًا للبقيّة. والصواب أن يَعرِف لكلٍّ مِن أولاده شخصيته وطبيعته، ويحضّهم على المكارم عامّة، ثم يترك لكلّ منهم أن يصيب منها ما استطاع وما يُسِّر له وحُبِّبَ إليه، وألا يحرم أحدًا حقَّه في الثناء على تميّزه في أمر دون إخوته، بل يُشيد بكلٍّ فيما أَحسَن علانية، ويُظهِر لكلٍّ منهم الرضا والتفضيل والمحبّة المخصوصة فيما بينه وبينه، وإذا خصَّ أحدًا بشيء بَيَّن السبب للكلّ، ثم خَصَّ غيره في حينه، وبذلك يشعرُ كلّ واحد أنّه مُفضَّلٌ عند والده وإن اختلف وجه التفضيل، فلا يعود ذلك مَدعاة للتناحُر والغَيرة والشِّقاق بينهم.

وإذن، بدل اتخاذ المقارنة دافعًا لحثّ الطفل على المكارم، فليُحَضَّ عليها مباشرة. فبدل: «كن مثل أخيك في حبّ القراءة»، يُقال: «طفل نبيهٌ مثلك يصير أنبهَ إذا قرأ كذا وكذا»، وهذا قبس من هدي النبي ﷺ عندما قال في حقّ ابن عمر رضي الله عنهما: (نِعمَ الرَّجلُ عبدُ الله لو كان يُصلي بالليل)، مع أنّه كان في الصحابة مصلّون كثر لو شاء لسمّى واحدًا منهم فقارنه به! لكنّ هذا النوع من الحثّ هو الذي ترك في نفس الفتى الأثر المرجوّ، فكان ابن عمر بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً[2].

بدلَ اتخاذ المقارنة دافعًا لحثّ الطفل على المكارم، فليُحَضَّ عليها مباشرة. فبدل: «كن مثل أخيك في حبّ القراءة»، يُقال: «طفل نبيهٌ مثلك يصير أنبَهَ إذا قرأ كذا وكذا»

ختامًا:

من إحسان الوالِديّة أن يكون الوالدان منصفَين وعادلَين في الغضب والرضا، وعند القِسْمة والعطيّة، والثناء والمؤاخذة، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: «سألَت أمي أبي بعضَ الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي، فقالت: لا أرضى حتى تُشهد النبي ﷺ، فأخذ بيدي وأنا غلام فأتى بي النبي ﷺ فقال: إنّ أمّه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا، قال: (أَلكَ ولد سِواه، قال: نعم، قال: لا تُشهدني على جَور)[3]. وجاء في شرح الحديث في فتح الباري: «واختلاف الألفاظ في هذه القصّة الواحدة يرجع إلى معنى واحد، وقد تمسّك به مَن أوجب التسوية في عطيّة الأولاد، ... وذهب الجمهور إلى أنّ التسوية مستحبّة، فإن فضّل بعضًا صح وكُره، واستحبت المبادرة إلى التسوية أو الرجوع، فحملوا الأمر على الندب، والنهي على التنزيه»[4].

وفي رواية أنّ الرسول ﷺ سأل بشيرًا والد النعمان: (أليس يَسُرك أن يكونوا إليك في البر سواء؟ قال: بلى، قال: فلا إذًا)[5]. فتأمل المنطق، إذ إنّ الوالدين وإنْ فضّلا بعض الأبناء على بعض، ينتظرون ويتوقّعون ويسرّهم أن يجدوا من الكلّ البرّ! وعليه كان الإنصاف أن يكونا عادلين مع أبنائهم بما يسرّهم ويجبر خواطرهم، فيكون ردّ أبنائهم من جنس عملهم.

(١) أخرجه أحمد (١٣٩٩٠).
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٣٨).
(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥٠).
(٤) فتح الباري (٥/٢١٤).
(٥) أخرجه مسلم (١٦٢٣).

قضايا معاصرة

نظرية ولاية الفقيه: جذورها وتأثيرها على المجتمعات الشيعية

أ. عباس شريفة (*)

مع تبنّي الخميني لنظرية الولي الفقيه بعد الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م كأساس للحكم في إيران وكإطار لصياغة العلاقات الإقليمية مع الدول السنية؛ دخلت العلاقة الشيعية السنية في منحى خطير للغاية، أوجد عند الباحثين أسئلة كثيرة عن نظرية الولي الفقيه وكيف تطوّرت هذه النظرية تاريخيًا؟ وكيف تحول الشيعة من عقيدة الانتظار والانعزال إلى عقيدة البعث والصحوة السياسية بطريقة عنيفة؟

في هذا المقال محاولة لتحليل نشأة نظرية الولي الفقيه عبر تطوّر متتالية النظريات السياسية في الفكر الشيعي، والأثر الذي أحدثته فكرة الولي الفقيه في المجتمعات الشيعية، والدور السياسي للطائفة الشيعية بعد عام ١٩٧٩م في المنطقة وما رافقه من إشعال الحرب الطائفية في العديد من البلدان العربية.

يهدف المقال إلى فهم التأثيرات السياسية لولاية الفقيه، والبحث في انعكاساتها السياسية على دور الطائفة الشيعية وعلاقتها بالمحيط السني بوصفه الكيان الديمغرافي المشكّل للأمّة، وكيف أثّرت نظرية ولاية الفقيه في تكوين هوية سياسية جديدة للمجتمعات الشيعية؟

تطوّر الفكر السياسي الشيعي من نظرية الوصاية إلى نظرية الولي الفقيه:

من لحظة التأسيس النظري للفكر السياسي الشيعي بدا مشبّعًا بالثغرات العقدية والفقهية والاختلالات المنطقية بين النبوءة واستعصائها على التحقّق، إضافة لإشكالات بنيوية ونظرية وواقعية كانت تستدعي دائمًا من المراجع إمّا تأويل النظرية أو إلحاقها بنظرية تفسيرية جديدة لسدّ الثغرات التي تنفي منطقيتها وتماسكها، وهو الأمر الذي بدأ منذ تجاوز الفكر السياسي الشيعي تأسيس الولاية العامّة على الشورى، وهنا يمكن أن نحصر المراحل التي مرّ بها الفكر الشيعي وتطوّره من خلال خمس نظريات سياسية أساسية مع نظريات فرعية أخرى.

(*) باحث في الصراعات والفكر الإسلامي.

١. نظرية الوصيّة:

فقد ذهب الشيعة الإمامية إلى أنّ الإمامة الكبرى محددة بوصية النبي ﷺ وليس بشورى المسلمين كما نصّ القرآن الكريم، واستندت في دعواها إلى أحاديث «الوصية» التي لا يوجد فيها أي دلالة قطعية تؤكد أنّ عليًّا ﷺ هو وصي النبي ﷺ، وهو حديث (من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه)[١] الذي تكلّم فيه عدد من أهل العلم، قال عنه ابن تيمية: «وأما قوله: (من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه) فليس هو في الصِّحاح، لكن هو مما رواه العلماء وتنازع الناس في صحّته؛ فنُقل عن البخاري وإبراهيم الحربي وطائفة من أهل العلم بالحديث أنّهم طعنوا فيه وضعّفوه»، وقال: «وأما الزيادة وهي قوله: (اللهمَّ والِ من والاه وعادِ من عاداه)... إلخ فلا ريب أنّه كذب»[٢]، وحتى لو قيل بصحّته فإنّ دلالة الحديث ظنّية محتملة، وهي مثار للاختلاف والاجتهاد وليست محلّ اتفاق، وأبعد ما يكون من معانيه هو الدلالة على الولاية العامة[٣]. كما أنّ الواقع لم ينتهِ لاختيار علي ﷺ للخلافة، وحتى بعض علماء الشيعة يقرّون بعدم صراحة الحديث في الوصية، كالشريف الرضي الذي يعتبره نصًا خفيًا غير واضح على الخلافة، حيث يقول: «إنّا لا ندعي علم الضرورة في النصّ، لا لأنفسنا ولا على مخالفينا، وما نعرف أحدًا من أصحابنا صرّح بادّعاء ذلك»[٤].

٢. نظرية الإمامة:

بعد استشهاد علي ﷺ وعدم تنفيذ الوصيّة واقعًا؛ دخل الفكر الشيعي في مأزق عدم تحقّق الوصية، فذهبوا إلى نظرية الإمامة التي تنصّ على أنّ الإمامة هي لاثني عشرة رجلاً من أبناء علي وفاطمة ﷺ، واستندوا في ذلك إلى حديث جابر بن سمرة ﷺ قال: (دخلت مع أبي على النبي ﷺ فسمعته يقول: إنَّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشرَ خليفة. قال: ثم تكلّم بكلام خفي عَلَيَّ، قال: فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلّهم من قريش)[٥]، وهذا الحديث رغم صحّته لكنّه بعيد المعنى في دلالته على أبناء فاطمة، وهو ما سيؤسّس لثغرة جديدة في بناء الفكر الشيعي ويمزّق الصفّ الشيعي بناء على اختلافهم على شخوص هؤلاء الأئمة والعودة للرأي في تحديدهم.

ويزعم الشيعة أنّ هؤلاء الأئمة في العصمة والكمال كالأنبياء عليهم السلام[٦]، ويرون وجوب طاعة هؤلاء الأئمة، وأنّ طاعتهم طاعة لله تعالى ومعصيتهم معصية لله تعالى، وأنّ المنكِر للإمامة كالمنكِر للنبوّة، وأنّهم أفضل خلق الله بعد نبيه ﷺ[٧]، بل ذهب جمع منهم إلى أنّ الأئمة الاثني عشر أفضل من جميع الرسل إلا من محمد ﷺ، وذهب بعضهم إلى أنّهم أفضل من جميع الأنبياء إلا أولي العزم من الرسل فإنّهم أفضل من الأئمة[٨]، يقول الخميني: «وإنّ من ضروريات مذهبنا أنّ لأئمّتنا مقامًا لا يبلغه مَلَك مقرَّب، ولا نَبي مُرْسَل»[٩]؛ ما يعني أنّهم أفضل من الأنبياء والملائكة جميعًا!

على هذا التأسيس النظري قامت فكرة الإمامة، لكنّها هي الأخرى بقيت فرضيّة لم تتحقق رغم كل الثورات التي قام بها الشيعة لتحويلها إلى واقع متحقّق.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧١٣) وابن ماجه (١٢١) وأحمد (٦٣١).

(٢) منهاج السنة النبوية (٣١٩/٧). وأخرج هذه اللفظة النسائي في السنن الكبرى (٨٠٩٢) من حديث زيد بن أرقم وغيره من طرق، وكذلك ابن ماجه (١١٦) من حديث البراء بن عازب، وصححها الألباني وشعيب ومحققو مسند أحمد. وقال الإمام الذهبي فيما نقله عنه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٨٨/٥): «صدرُ الحديث متواتر، أتيقنُ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله، وأمّا: «اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه» فزيادة قوية الإسناد». فهي دائرة بين الصحة والضعف، ولعلّها حسنة، وليست كذبًا.

(٣) قال البيهقي في كتاب الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد (٣٥٤): «وأمّا حديث الموالاة فليس فيه -إن صحّ إسناده- نصٌّ على ولاية علي بعده، فقد ذكرنا من طرقه في كتاب الفضائل ما دلّ على مقصود النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك، وهو أنّه لما بعثه إلى اليمن كثرت الشكاة عنه وأظهروا بغضه، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر اختصاصه به ومحبّته إياه، ويحثهم بذلك على محبته وموالاته وترك معاداته، فقال: من كنت وليه فعليّ وليه، وفي بعض الروايات: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، والمراد به ولاء الإسلام ومودّته، وعلى المسلمين أن يوالي بعضهم بعضًا ولا يعادي بعضهم بعضًا». وجاء في تحفة الأحوذي: «قيل معناه من كنت أتولاه فعليّ يتولاه من الولي ضدّ العدو، أي من كنت أحبه فعلي يحبه، وقيل معناه من يتولاني فعليّ يتولاه ذكره القارىء عن بعض علمائه ... قال الشافعي رضي الله عنه: يعني بذلك ولاء الإسلام كقوله تعالى: ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ... قال الطيبي: لا يستقيم أن تحمل الولاية على الإمامة التي هي التصرف في أمور المؤمنين لأنّ المتصرّف المستقل في حياته هو هو لا غيره؛ فيجب أن يحمل على المحبة وولاء الإسلام ونحوهما».

(٤) تطور الفكر السياسي الشيعي، لأحمد الكاتب، ص (٥٧).

(٥) أخرجه البخاري (٧٢٢٢) ومسلم (١٨٢١) واللفظ له.

(٦) في رحاب العقيدة، إعداد: مركز نون للتأليف والترجمة، ص (١٠٩-١١٠).

(٧) المقنعة، للشيخ المفيد، ص (٣٢).

(٨) ينظر: أوائل المقالات، للشيخ المفيد، ص (٧٠).

(٩) الحكومة الإسلامية، للخميني، ص (٥٢).

بعد استشهاد علي ﷺ دخل الفكر الشيعي في مأزق عدم تحقّق الوصية، فذهب الشيعة إلى نظرية الإمامة التي تنصّ على أنّ الإمامة هي لاثني عشرة رجلاً من أبناء علي وفاطمة ﷺ

٣. نظرية الغيبة والرجعة:

أحدثت وفاة الإمام الحادي عشر عند الإمامية وهو الحسن العسكري في سامراء سنة ٢٦٠هـ دون إعلانه عن وجود خلف له ارتباكًا وزلزالاً في المعتقد الشيعي كاد ينهي نظرية الإمامة نهائيًا؛ فقد أصبح مصير النظرية في مهب الريح ولم يولد الإمام الثاني عشر، ونتيجة هذا المأزق العقدي افترق الشيعة إلى فرق عديدة: فمنهم من قال بوجود خَلَف للإمام العسكري، وأنّ اسمه محمد، وقد أخفاه والده خوفًا من السلطة فستر أمره، وهؤلاء هم الإمامية، ومنهم من أنكر ذلك.

ومن هنا ظهر القول بمهدوية محمد بن الحسن العسكري، والقول بالغيبة والرجعة، حيث يزعم الشيعة الإمامية الاثنا عشرية أنّ:

- الحسن العسكري قد أنجب ولده محمدًا وهو إمامهم المهدي المولود في الخامس عشر من شعبان سنة ٢٥٥ هجرية، وقيل سنة ٢٥٦ هجرية، وقيل ٢٥٤ هجرية.
- الحسن العسكري قد أخفى مولد ابنه محمد وستر أمره؛ فالظرف لم يكن مناسبًا بسبب الخوف من الخليفة العباسي أن يطلبه ويحبسه أو يقتله.
- محمد بن الحسن العسكري اختفى بعد وفاة أبيه عام ٢٦٠هـ، وسيعود يومًا ليملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلِئَت جورًا وظلمًا[١].

وعقيدة الغيبة الكبرى والصغرى لا دليل عليها أبدًا لا من نصوص القرآن ولا الحديث النبوي، بل تستند إلى روايات عن مراجع الشيعة في العصور المتأخرة حيث لم يكن أحد يعلم عنها شيئًا قبل ذلك، وهو ما أدخل الفكر الشيعي في نفق مظلم لا يمكن الخروج منه أبدًا إلا باختراع نظرية جديدة فكانت نظرية الانتظار، وهذا ملاحظ في الفكر الشيعي: أنّ النظرية التالية تتولّد بعد فشل النظرية السابقة، ولا يوجد تأسيس نظري متكامل لكلّ هذه النظريات قائم على النقل.

٤. نظرية الانتظار:

لقد كانت النتيجة الطبيعية واللازمة لفكرة الغيبة: وجود نظرية «الانتظار»، ومن أهمّ مبادئها: تحريم النشاط السياسي في «عصر الغيبة»، وهو المبدأ الذي ساد قرونًا طويلة من الزمن، ولا تزال بعض آثاره مستمرّة، بالرغم من القول بنظرية «النيابة العامة وولاية الفقيه»، حيث انتهت نظرية علماء الكلام الشيعة المثالية إلى غيبة الشيعة عن الحياة وافتقادهم للإمامة، لعدم ظهور «الإمام المعصوم».

وهذا ما شكّل تناقضًا صارخًا مع فلسفة الإمامة التي تقول بوجوب الإمام في الأرض، ووجوب كونه معصومًا، ووجوب تعيين الله له في كلّ زمان ومكان؛ من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية وقيادة المسلمين والإفتاء لهم وحلّ مشاكلهم التشريعية، وهنا كان لا بد من الهروب إلى الأمام وإبداع نظرية جديدة لإغلاق هذا الثقب الجديد[٢].

٥. نظريّة الولي الفقيه:

* التأسيس الفقهي للنظرية:

أوّل من أسّس نظرية «ولاية الفقيه» هو المرجع الشيعي «أحمد النراقي» (١١٨٥-١٢٤٥هـ)[٣]، وعلى الرغم من ظهور نظريات شيعية نادت بولاية الفقهاء والأمّة بدلاً من ولاية الفقيه وتبنّي الدستور الذي يحدّد سلطات الحاكم ويمنح الأمّة حقّ الرقابة والمحاسبة عبر مجلس النواب ويفصل بين السلطات مثل نظرية المرجع الإيراني محمد حسين النائيني ١٨٦٠م والذي تأثر بكتابة عبد الرحمن الكواكبي[٤]؛ لكن بقيت الفكرة السائدة هي نظرية الولي الفقيه وخضعت النظرية للبحث والتطوير على يد مراجع جبل عامل في لبنان، حتى جاء الخميني وتبنّاها كأساس للحكم في إيران بعد ثورة ١٩٧٩، وقد تحدّث الخميني في كتابه «الحكومة الإسلامية» عن ولاية الفقيه مبيّنًا المقصود منها قائلاً: «وإذا نهض بأمر تشكيل الحكومة فقيه عالِم عادل، فإنّه يلي من أمور المجتمع ما كان يليه النبيّ ﷺ منهم،

(١) ينظر: الأئمة الاثني عشر، للسيد محسن الحكيم، ص (٧١-٧٢).
(٢) تطور الفكر السياسي الشيعي، ص (٢٩٨).
(٣) يراجع: عوائد الأيام، لأحمد النراقي.
(٤) تنبيه الأمة وتنزيه الملة، لمحمد حسين النائيني، ص (١٣٨).

ووجب على الناس أن يسمعوا له ويُطيعوا، ويملك هذا الحاكم من أمر الإدارة والرعاية والسياسة للناس ما كان يملكه الرسول ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام، على ما يمتاز به الرسول والإمام من فضائل ومناقب خاصّة؛ لأنّ فضائلهم لم تكن تُخوّلهم أن يُخالفوا تعاليم الشرع، أو يتحكّموا في الناس بعيدًا عن أمر الله، وقد فوّض الله الحكومة الإسلاميّة الفعليّة المفروض تشكيلها في زمن الغيبة نفس ما فوّضه إلى النبيّ ﷺ وأمير المؤمنين من أمر الحكم والقضاء والفصل في المنازعات، وتعيين الولاة والعمّال، وجباية الخراج، وتعمير البلاد، غاية الأمر أنّ تعيين شخص الحاكم الآن مرهون بمن جمع في نفسه العلم والعدل ....، فالولاية تعني حكومة الناس، وإدارة الدولة، وتنفيذ أحكام الشرع، وبعبارةٍ أخرى فالولاية تعني الحكومة والإدارة وسياسة البلاد»[١].

ويرى «كاظم الحائري» أنّ ولاية الفقيه هي: امتداد لولاية النبي والإمام، فبعد انتهاء دور النواب الأربعة «الذين يتوسطون بين الشيعة والإمام في عصر الغيبة الصغرى»، فالمستفاد من الروايات المروية عند الشيعة هو إعطاء النيابة عن الإمام والولاية العامة بيد الفقهاء الواجدين لمواصفات معينة...، فالولاية بمعنى الأولوية من النفس إنّما ثبتت للنبي والإمام بالنصّ الصريح، أمّا المنصرف إلى الذهن عرفًا من أدلّة الولاية سواء في ولاية الأب على الأولاد أو في ولاية الفقيه على المجتمع أو غير ذلك فهو: الولاية في حدود تكميل نقص المولّى عليه وعلاج قصوره[٢].

❋ تعريف نظرية الولي الفقيه:

وقد عُرّفت ولاية الفقيه بأنّها: حاكميّة المجتهد الجامع للشرائط في عصر الغيبة[٣]، ومن التعريف السابق يظهر لنا أنّ الولي الفقيه عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية هو حاكم يحكم نيابة عن الإمام الثاني عشر الذي غاب، وبسبب غيبته تعطّلت مصالح الشيعة؛ مما اضطرهم إلى أن يقيموا من فقهائهم المجتهدين حاكمًا يحكمهم إلى حين ظهور هذا الإمام وعودته من غيبته حسب زعمهم، كما ظهر من خلال التعريفات السابقة أنّ هناك فرقًا بين الولي الفقيه والإمام المعصوم عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية، فالإمام عندهم معصوم، أمّا الولي الفقيه فليس بمعصوم، كما أنّ مرتبة الإمام أعلى من مرتبة الولي الفقيه.

> **الولي الفقيه عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية هو حاكم يحكم نيابة عن الإمام الثاني عشر الغائب، والذي تعطّلت بسبب غيبته مصالح الشيعة؛ مما اضطرهم إلى أن يقيموا من فقهائهم المجتهدين حاكمًا يحكمهم إلى حين ظهور هذا الإمام وعودته من غيبته حسب زعمهم**

❋ المهمات المنوطة بمنصب الولي الفقيه:

تتحدّد مهمة الولي الفقيه عند مراجع الشيعة القائلين بها بخمس وظائف أو صلاحيات حصرية للفقيه، وكلّ واحدة منها تمثّل ولاية فرعية من ولاية الفقيه:

- وظيفة فقهية، تتمثّل في الإفتاء.
- وظيفة تحكيمية، تتمثّل في القضاء.
- وظيفة مالية، تتعلّق بشؤون الحقوق المالية الشرعية؛ مثل جمع الخمس وتوزيعه.
- وظيفة حسبية، تتعلّق بإدارة المجتمع الشيعي.
- وظيفة سياسية، تتعلّق بإقامة الدولة الإسلامية وقيادتها.

وتجمع المراجع الشيعية على الوظائف الأربعة الأُول، ولكنّهم يختلفون على الوظيفة الخامسة المتمثلة في صلاحية إقامة الدولة الإسلامية وقيادتها[٤]، فمنهم من يرى أنّ أحاديث الأئمة ومقاصد الشريعة والنظام الإسلامي تدلّ بمجملها على حتمية هذه الوظيفة وبديهيتها[٥]، ومنهم من يرى أنّ الأحاديث لا تدلّ على هذه الوظيفة.

هذا هو الخط التطوّري للفكر السياسي الشيعي الذي امتدّ من الانقلاب على الشورى واختراع نظرية

(١) الحكومة الإسلامية، للخميني، ص (٤٩ -٥٠).
(٢) أساس الحكومة الإسلامية، لكاظم الحائري، ص (١٣٩-١٤٢)، مع تصرف يسير.
(٣) دروس في ولاية الفقيه، إعداد مركز نون للتأليف والترجمة، ص (١٤).
(٤) ينظر: التنقيح في شرح العروة الوثقى، لعلي التبريزي، ص (٤١٩).
(٥) وأبرزهم المحقق الكركي في كتاب «صلاة الجمعة»، ومحمد حسن النجفي في «جواهر الكلام»، وغيرهم، إذ احتجوا بالإجماع بشأن ثبوت الزعامة العامة للفقيه وشمول صلاحياته على الحكم. ويمكن مراجعة كتاب «الاجتهاد والتقليد والاحتياط»، لعلي السيستاني، تحرير: محمد علي رباني، ص (١١٨) للاطلاع على نصوص هؤلاء المراجع بشأن الاتفاق والإجماع على الولاية العامة للفقيه.

مراحل تطور الفكر السياسي الشيعي

الوصيّة، مرورًا بنظرية الإمامة والغيبة والانتظار، وصولاً إلى نظرية ولاية الفقيه التي كانت أخطر مراحل التطور؛ حيث تحوّلت هذه النظرية للمرة الأولى إلى واقع معاش، واكتسبت الطائفة الشيعية حكم دولة إقليمية تتبنّى النظرية وتحكم وتصيغ علاقاتها السياسية ودعوتها الدينية من خلالها، وتعتبرها الأساس النظري للمشروع الإيراني في المنطقة والعالم الإسلامي، وهو ما أدخل العلاقة بين الشيعة والسنّة في مرحلة خطيرة من الاحتراب بسبب هذا المشروع التوسعي التبشيري.

التأثيرات السياسية والاجتماعية لولاية الفقيه على المجتمعات الشيعية:

مع وصول الخميني إلى السلطة في إيران عام ١٩٧٩م إثر ثورة شعبية؛ انتقلت نظرية الولي الفقيه من بطون الكتب الشيعية إلى المجال السياسي التطبيقي باعتبارها الأساس الفلسفي والديني للحكم في إيران ومصدر الشرعية السياسية والدينية لحكم الخميني، حيث أصبحت النظرية هي الأساس الدستوري لحكم إيران، فقد نصّت المادة الخامسة من نص الدستور: فـي زمن غيبة الإمام المهدي تكون ولاية الأمر وإمامة الأمة فـي الجمهورية الإسلامية الإيرانية بيد الفقيه العادل، المتقي، البصير بأمور العصر، الشجاع القادر على الإدارة والتدبير[1].

كان لهذه النظرية تأثيرات سياسية واجتماعية عميقة على المجتمعات الشيعية داخل إيران وخارجها.

❋ التأثيرات السياسية: الارتباط السياسي بنموذج جديد للدولة عابر للحدود والدولة والوطنية:

عندما أسس الخميني نظامًا سياسيًا يعتمد على ولاية الفقيه، وأعطى سلطة كبيرة للقائد الديني الذي يجمع بين الولاية السياسية العامّة على الشيعة والولاية الدينية كمرجع للتقليد؛ جعل الكثير من الطوائف الشيعية في سورية ولبنان والعراق والخليج العربي وباكستان وأفغانستان ترتبط بالخميني ارتباطًا سياسيًا أساسه الولاء والتبعية وتقديم مصالح النظام الإيراني وتوجّهاته على مصالح الدولة الوطنية التي يعيشون فيها، وتحديد علاقتهم بالشريك الوطني من خلال الدور الذي يلعبونه لصالح أجندات خارجية عابرة للمصالح الوطنية، وهو ما انعكس في الاستقرار في هذه الدول خصوصًا مع بناء الطائفة الشيعية لمنظومة أمنية وعسكرية واقتصادية وتعليمية مرتبطة بنظام الولي الفقيه وليس لها أيّ علاقة بالوطن.

❋ التأثرات الثقافية: تعزيز الهوية الشيعية القاتلة:

إنّ عامل الاستقواء سيكون له الدور المركزي في إعادة تعريف الهوية الشيعية كعصبة متناصرة ومتحالفة مع مجموعة العصبات الشيعية في كلّ المنطقة العربية ضدّ شركاء الوطن وتابعة مركزيًا لقيادة الولي الفقيه، وبالتالي لم تعد الهوية الوطنية بالنسبة للشيعة الخمينيين وكذلك الهوية الإسلامية تعني لهم أيّ شيء، ولم تعد تنظر إلى الآخر السنّي إلا أنّه الغريم والشرير الذي يتم تحشيد المجتمع الشيعي ضدّه لأخذ الثأر منه باعتباره حفيدًا للأمويين أو عنصرًا في الجبهة اليزيدية!

لقد نقلت نظرية الولي الفقيه المجتمعات الشيعية من هوية الانتظار الساكنة والمتعايشة مع الآخر إلى درجة كانت المصاهرة والتزاوج أمرًا عاديًا بين الشيعة والسنّة في الكثير من المجتمعات العربية، إلى حالة من العصبية المنغلقة على الذات

(١) دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية مع دليل وفهارس، المركز الثقافي للجمهورية الإسلامية الإيرانية، ص (٤٠).

المهمات المنوطة بمنصب الولي الفقيه

وظيفة فقهية (الافتاء)	وظيفة قضائية (التحكيم)	وظيفة مالية (جمع الخُمس وتوزيعه)	وظيفة حسبية (إدارة المجتمع الشيعي)	وظيفة سياسية (إقامة الدولة وقيادتها)

مع الاجتياح العدواني الشامل على الأمّة السنّية، حتى التحوّط الأمني بعقيدة التقيّة لضمان التعايش السلمي مع مجتمعات «الأكثرية» لم يعد موجودًا، وبدت خطابات الكراهية والتحشيد بادية مخالبها وأنيابها.

لقد عزّزت فكرة الولي الفقيه الهوية الشيعية ليس في دائرة الهوية الوطنية أو الإسلامية العامة وإنّما في دائرة الانغلاق على الذات، وهو ما ولّد هوية قاتلة بكلّ المعايير للهويات الفاشية والنازية والصهيونية التي تقتل الآخر بناء على أساطير تاريخية، وهنا أصبحت الحالة البكائية وعقدة المظلومية ومهرجانات اللطم والدعوات الثأرية مرتكزات أساسية في بناء هذه الهوية الأحادية الغاضبة والمتعطّشة للثأر والمتوتّرة تجاه الآخر.

❋ التأثير العسكري: النشاط العسكري خارج منظومة الدولة الوطنية:

أدّى ارتباط المجتمعات الشيعية بنظام الولي الفقيه في إيران إلى خلق نموذج جديد للدولة أساسه ازدواجية السلطة بين حكومة شرعية وبين ميليشيات ما دون الدولة التي تتحرك خارج سلطة الدولة وترتبط بنظام الولي الفقيه، وهو ما ساعد إيران على توسيع دورها الإقليمي من خلال قدرتها على شنّ حروب هجينة ضد الدول التي تقف ضد مصالحها من خلال دعم العديد من الحركات الشيعية في الدول المجاورة مثل العراق ولبنان وسورية واليمن، وهو ما أدّى إلى تغيّر ميزان القوى في المنطقة لصالح إيران التي تُعتبر قوّة شيعية عظمى يمكنها أن تلعب دورًا وظيفيًا في تهديد الدول السنّية.

لكن مع ذلك لم يخلُ الأمر من نكبات كبيرة أصابت المجتمعات الشيعية التي تحوّلت إلى ساحة لصراعات الوكالة عن إيران ودفعها لثمن تمدّد النفوذ الإيراني من رصيدها البشري والمادّي كما هو الحال اليوم في الحرب الدائرة على لبنان ومحاولة إسرائيل لتهجير الطائفة الشيعية من لبنان إلى العراق.

❋ التأثير النفسي وتشكل بداية صحوة شيعية غير متعقّلة:

ألهمت فكرة الولي الفقيه في جزئها التطبيقي من الثورة الخمينية المكوّن الشيعي في مختلف البلدان، وأعطتهم شعورًا بالتمكين السياسي، وشجّعتهم على المطالبة بحقوقهم والمشاركة في الحياة السياسية، كما ظهرت أحزاب وحركات سياسية شيعية جديدة في العديد من الدول مستلهمة من النموذج الإيراني، وساعية لتطبيق مبادئ ولاية الفقيه أو المشاركة في السلطة والدخول في صراعات عنيفة مع السلطة في بعض الدول لصالح إيران، والدخول في صراع مع الشعوب لصالح الأنظمة عندما تكون الأنظمة موالية لإيران كما في الحالة السورية.

❋ التأثيرات الداخلية على المجتمعات الشيعية:

لم تعزز نظرية الولي الفقيه حالة الصراع الشيعي السنّي فحسب في المنطقة، بل تسبّبت كذلك في تعزيز الانقسامات داخل الطائفة الشيعية حول الكثير من المواقف؛ مثل الموقف من الثورة الإيرانية، ودور ولاية الفقيه، وطبيعة العلاقة مع إيران وعلاقتهم مع المجتمعات السنّية المجاورة لهم.

كما أدّت هذه النظرية باعتبارها إيديولوجية مغلقة ونوعًا من الغلوّ السياسي إلى تنامي حالة التطرّف والعنف التي ظهرت في سلوك الميليشيات الشيعية الطائفية بممارسة العنف ليس ضدّ السنة فحسب وإنّما ضدّ الشيعة الذين لا يؤمنون بفكرة الولي الفقيه، والسعي لفرض مشروعها بالإكراه والقوّة، مما عزّز الصورة السلبية عن المكوّن الشيعي

وأثار مخاوف من تنامي التطرّف، وأدخلها بحالة من العزلة الإقليمية والدولية بسبب ارتباطها بإيران التي باتت دولة منبوذة في العالم الإسلامي.

الخاتمة والاستنتاجات:

أحدثت فكرة الولي الفقيه تحوّلات عميقة في المجتمعات الشيعية، وأثّرت على مختلف جوانب حياتها السياسية والدينية والاجتماعية، ولا تزال آثارها مستمرة حتى اليوم، وتشكّل تحدّيًا لكثير من المجتمعات الشيعية في سعيها لتحقيق التوازن بين الشعور بالاستقواء والتفوّق وبين تحقيق الاستقرار والمشاركة والتفاعل مع الآخر.

لقد أسهمت نظرية الولي الفقيه -بما أفرزته من نموذج حكم ديني ثيوقراطي، وآيديولوجيا- في قيام دولة «إسلامية» ثورية تجمع بين النموذج الفكري والمعرفي المتمثّل بالإمامة المثالية المعصومة ومبادئ الثورة الحسينية ضدّ ما تسميه بالظلم والانحراف، وبين الأفكار الأممية اليسارية وتأسيس التنظيمات الثورية العابرة للحدود الوطنية في دعواتها لتحرير الطبقات المسحوقة في العالم والتحرر من الاستعمار بحسب زعمهم، إلى صحوة الطائفة الشيعية والتحوّل من حالة السكون السياسي إلى الحضور السياسي في الكثير من القضايا لكنّها كانت صحوة غير راشدة[1]؛ بسبب الثقوب المعرفية الواسعة التي قامت عليها هذه الصحوة، وبسبب حجم الخرافات العلمية الهائلة التي تسكن الموروث الروائي الشيعي والذي تحوّل من مجرّد موروث ديني خاص إلى برنامج سياسي للشيعة يوجههم في حكم الدولة والتعامل مع الآخر، وعليه فيمكن أن يكون يوم غدير خم عيدًا وطنيًا في العراق بعد تصويت البرلمان العراقي، ويمكن لمجالس العزاء ومهرجانات التطبير أن تتحوّل إلى حملات انتخابية للأحزاب، ويمكن أن تتحول الخطابات الطائفية الثأرية إلى برامج انتخابية بديلاً عن الحديث حول التنمية الاقتصادية.

إنّ هذه الثغرات الواسعة بدت واضحة ومنعكسة على تطبيق النظرية نفسها، فحين يتحدّث المثال عن نصرة المستضعفين تذهب إيران لنصرة المستبدّين أمثال بشار الأسد، وعندما تذهب النظرية إلى رعاية أمور المسلمين تقوم أذرع إيران بإشعال الحروب الطائفية بين المسلمين، وحين تذهب النظرية لتوحيد المسلمين تكون النتيجة هي قهر الأكثرية السنّية تحت سلطة الولي الفقيه، وحين يتحدث المثال عن الأمّة الواحدة نجد الدولة تأخذ منحًى طائفيًا يشظّي الأمّة ويفتتها على أساسات عرقية ومذهبية، ويجعل من المذهب مطيّة للعقد القومية التاريخية.

إنّ التنظير السياسي الشيعي يصعد على مرتقى صعب ويقف على منحدر سحيق أو أرضية مضطربة، فهو لا يستطيع إبداع نظرية ترقع الثقوب الكبيرة في بنيان نظرية الولي الفقيه؛ لأنّ معنى ذلك أن يعود لنظام الشورى الذي تنكّر له الفكر السياسي الشيعي منذ لحظته التأسيسية الأولى واعتناقه لفكرة الوصيّة.

ولا يستطيع أن ينقض فكرة الولي الفقيه؛ لأنّ معنى ذلك فتح الباب لنقض كلّ النظريات التي سبقتها ومهّدت لظهورها منذ فكرة الوصاية إلى الغيبية الكبرى، وهو ما يعني إسقاط الأسس النظرية للتشيع برمّته على اعتبار أنّ فكرة التشيّع في أساسها النظري فكرة سياسية تحوّلت إلى رؤية عقدية وفقهية.

وحتى مراجعة التطبيق للفكرة لن يكون مفيدًا؛ لأنّ أصل الخلل ليس في النظرية نفسها فحسب وليس بمجرد التطبيق الخاطئ، بل إنّ الخلل في التعصب للذات الشيعية ضدّ الآخر بالحمولة النفسية بعقيدة ثأرية انتقامية وتبنّي الدولة لكلّ الموروث الروائي الشيعي الذي يتحدّث عن الجبهة اليزيدية كجبهة واقعية وليس مجرّد حدث حصل في التاريخ، إنّها دولة تحمل معها حمولة تاريخ مزوّر وقراءة قاتلة للتاريخ، وتدفع بالشيعة لخوض صراع التاريخ بدلاً من النظر إلى المستقبل، وهو ما يعني دفعهم باستمرار نحو الانتحار الجماعي في سبيل تحقيق مشروع الولي الفقيه والاصطدام المتكرّر بالجدار والوقوع المستمر في حفرة العدمية السياسية.

> **إنّ التنظير السياسي الشيعي يصعد على مرتقى صعب ويقف على منحدر سحيق أو أرضية مضطربة، فهو لا يستطيع إبداع نظرية ترقع الثقوب الكبيرة في بنيان نظرية الولي الفقيه؛ لأنّ معنى ذلك أن يعود لنظام الشورى الذي تنكّر له الفكر السياسي الشيعي منذ لحظته التأسيسية الأولى واعتناقه لفكرة الوصية**

(١) يراجع: صحوة الشيعة، لولي نصر، ترجمة سامي الكعكي.

تأصيل

من أقوال أهل العلم في الرافضة

أ. أحمد خضر المحمد (*)

في ظلّ انخداع كثيرٍ من الشعوب الإسلامية بحال الشيعة، حتى في طبَقَة العلماء والمفكرين، كان لا بدَّ من تبيان حقيقة أمرهم، وفساد معتقدهم؛ فالرافضة من أخطر الفرق على الأمّة، وخاصّةً في هذا الزمان الذي أحدثوا فيه حِيَلاً جديدةً لاصطياد الجهلة، وضمّهم إلى صفِّهم. لذلك جاءت هذه المقالة التي ستأخذنا بجولةٍ في أقوال العلماء الثقات التي تحذّر منهم، مطوّفين بين علماء السلف والخلف، على اختلاف مدارسهم ومشاربهم، ننقل عنهم تعليقاتهم النفيسة في حكم طائفة الشيعة الرافضة ليكون المسلمون على حذرٍ منهم، ويعوا مخططات أعدائهم الخبيثة الرامية إلى سلخ المسلمين عن دينهم وعقيدتهم.

متى ظهر التشيع؟

إنّ دين الإسلام قد اكتمل في عهد الرسول ﷺ، لقوله الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وإنّما ظهرت بدعة التشيُّع بعد عشرات السنين، قال الإمام ابن حزم الظاهري رحمه الله: «إنّ الروافض ليسوا من المسلمين، إنّما هي فرقٌ حدث أولها بعد موت النبي ﷺ بخمسٍ وعشرين سنة»[١].

لماذا سمّوا بالرافضة؟

ذهب الإمام الأشعري رحمه الله إلى أنّهم سمُّوا بهذا الاسم لرفضهم إمامة الشيخين، فقال: «وإنّما سموا رافضةً لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر»[٢].

وثمّة قولٌ آخر ذكره الحافظ ابن الجوزي رحمه الله: «روينا أنّ الشيعة طالبت زيد بن عَليّ بالتبري ممّن خالف عليًا في إمامته فامتنع من ذلك، فرفضوه، فسمّوا الرافضة»[٣].

(*) ماجستير عقائد وأديان، مسؤول ملف الإلحاد في مركز مناصحة.

(١) الفِصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم (٦٥/٢).

(٢) مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري (٣٣/١).

(٣) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص (٨٨).

قال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله:
«روينا أنّ الشيعة طالبت زيد بن عَليّ بالتبري ممّن خالف عليًا في إمامته فامتنع من ذلك، فرفضوه، فسمّوا الرافضة»
(تلبيس إبليس)

شبه الرافضة بالخوارج والمرجئة:

بين الرافضة والخوارج شبهٌ كبيرٌ مع اختلاف معتقدهما؛ فكلا الطائفتين يكفّر أهل السنّة، والرافضة يكفِّرون أهل السنّة لعدم موافقتهم في معتقداتهم الضالّة في الإمامة، قال القاضي عبد الجبار المعتزلي: «وأمّا الإماميةُ، فقد ذهبت إلى أنّ الطريق إلى إمامة الاثني عشرَ النصُّ الجليُّ، الذي يكفُرُ من أنكره، ويجبُ تكفيرُه؛ فكفَّروا لذلك صحابةَ النبي ﷺ»[١].

ومع غلوِّهم هذا نجد إرجاءً فاضحًا في عقائدهم، يقول الشيخ ناصر القفاري: «أصبح معرفة الأئمة عندهم كافيةً في الإيمان ودخول الجنان، فأخذوا بمذهب المرجئة رأسًا»[٢]. لذلك جمعوا كلّ شُرور الطوائف المنحرفة.

اعتقادهم تحريف القرآن:

عُرف عن الرافضة القول بتحريف القرآن الكريم، وإن أنكره جزءٌ منهم، لكنْ لهذا القول شواهد من كلام طائفةٍ من علمائهم، ومن ذلك:

أنّ الكليني -وهو ثقة الإسلام عندهم- يُعَنْوِنُ بابًا في كتابه (الكافي): «باب أنّه لم يجمع القرآن كلّه إلا الأئمة»[٣]، وبابًا آخر: «باب فيه الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة»[٤]. وفي هذين البابين تصريحٌ بالتحريف؛ إذ ينقل عدّة رواياتٍ عن أئمتهم عن مصحف فاطمة البالغ عدد آياته ١٧٠٠٠ آية، أي ثلاثة أضعاف القرآن الموجود الآن، وأنّ الوحيد الذي جمع القرآن من بين الصحابة هو عليّ، ولا أحد عنده القرآن كاملاً غير الأوصياء[٥]. وكثيرًا ما يستشهد بآياتٍ محرّفةٍ ويزعم أنّها حذفت من القرآن.

وقد ألف النوريُّ الطَّبَرسيُّ كتابًا أسماه: (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب ربِّ الأرباب)، ومن أبوابه: «في بيان أنّ القرآن الموجود فيما بين أظهرنا لم يكن مرتبًا كذلك في زمن النبي»[٦]، و«وقوع التغيير والنقص فيه»[٧]، و«شبهات القائلين بعدم تحريف القرآن»[٨]. وواضحٌ ما تحت هذه العناوين من تفاصيل وروايات يضيق بها المقام تنبئُ عن المقصود وزيادة.

ويكفي هنا أن ننقل ما قاله مَن يصفونه بالعلامة الحجّة السيد عدنان البحراني في كتابه (مشارق الشموس الدرية) بعد أن ذكر الروايات التي تفيد التحريف في نظره: «الأخبار التي لا تحصى كثرةً، وقد تجاوزت حدّ التواتر، ولا في نقلها كثير فائدةٍ بعد شيوع القول بالتحريف والتغيير بين الفريقين، وكونه من المسلّمات عند الصحابة والتابعين، بل وإجماع الفرقة المحقّة، وكونه من ضروريات مذهبهم، وبه تضافرت أخبارهم»[٩].

وقد أجمع علماؤنا على كُفر منكِر القرآن أو شيءٍ من حروفه، قال ابن قُدامةَ المقدسي رحمه الله: «لا خِلافَ بين المسلمين أجمعين أنَّ من جحد آيةً أو كَلِمةً مُتَّفَقًا عليها، أو حرفًا مُتَّفَقًا عليه؛ أنَّه كافِرٌ»[١٠]. وقال ابن عبد البر رحمه الله: «وأجمع العلماءُ: أنَّ ما في مصحف عثمان بن عفان -وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم في أقطار الأرض حيث كانوا- هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوزُ لأحدٍ أن يتجاوَزَهُ، ولا تحِلُّ الصلاةُ لمسلمٍ إلا بما فيه... وإنما حَلَّ مصحفُ عثمان ﷺ هذا المحل؛ لإجماع الصحابة وسائر الأمّة عليه، ولم يُجمعوا على ما سواه... ويُبيِّن لَك هذا أنَّ مَن دَفَعَ شيئًا مما في مصحف عثمان كَفَر»[١١].

(١) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص (٧٦١).
(٢) أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، للدكتور ناصر القفاري (٥٧٥/٢). وكثير منهم يقول: «حُبُّ عليّ حسنةٌ لا يضر معها سيئةٌ».
(٣) أصول الكافي، للكليني، (٢٤٨/١).
(٤) ينظر: المرجع السابق (٢٩٤/١).
(٥) ينظر: المرجع السابق (٤٤١/١).
(٦) ص (١٣٥).
(٧) ص (١٦٤).
(٨) ص (٧٨٦).
(٩) مشارق الشموس الدرية، للبحراني، ص (١٢٦).
(١٠) المناظرة في القرآن، لابن قدامة، ص (٣٣).
(١١) التمهيد، لابن عبد البر (٣٦٧/٣-٣٦٨).

أليس الشيعة أقرب إلينا من اليهود؟ ألا يمكن التحالف معهم ضدّ أعدائنا؟

هذا كلامٌ باطلٌ؛ فتاريخ الشيعة حافلٌ بموالاة أعداء الإسلام في الداخل والخارج، قال ابن القيم -رحمه الله- فيهم: «ما قام للمسلمين عدوٌّ من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الإسلام، وكم جرُّوا على الإسلام وأهله من بليّةٍ! وهل عاثَتْ سيوف المشركين عُبَّاد الأصنام -من عسكر هولاكو أو ذويه- إلا من تحت رؤوسهم؟»[1]، قلت: وهذا ديدَنُهم إلى الآن، والواقع خير شاهدٍ، فوصف إيران أمريكا بالشيطان الأكبر لم يمنعهم من التعاون معها ضد المسلمين في العراق وأفغانستان.

فكيف يُرجى الخير منهم وقد طعنوا في خير البشر بعد الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام! يقول أبو بكر بن العربي رحمه الله: «ما رَضِيَت اليهود والنصارى في أصحاب موسى وعيسى بما رضيت به الروافض في أصحاب محمد ﷺ حين حكموا عليهم بأنّهم قد اتّفقوا على الكفر والباطل، فما يُرجى من هؤلاء، وما يُستبقى منهم؟»[2].

> **تاريخ الشيعة حافلٌ بموالاة أعداء الإسلام في الداخل والخارج، قال ابن القيم رحمه الله: «ما قام للمسلمين عدوٌّ من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الإسلام، وكم جرُّوا على الإسلام وأهله من بليّةٍ! وهل عاثَتْ سيوف المشركين عُبَّاد الأصنام -من عسكر هولاكو أو ذويه- إلا من تحت رؤوسهم؟»**
> (مدارج السالكين)

هل موالاتهم لآل البيت جميعًا؟

الجواب: لا، يقول محمود شكري الألوسي رحمه الله: «والروافض ينكرون نسب بعض العترة كرقيّة وأم كلثوم ابنتَي رسول الله ﷺ، ولا يعدُّون بعضَهم داخلاً فيها»[3]. ومعروفٌ أيضًا أنّ انتسابهم لآل البيت إنّما هو محض كذبٍ وادعاءٍ؛ فالأئمة الأطهار من آل البيت لا يتبرؤون من الشيخين.

أئمةٌ أم آلهةٌ؟

خصائص أئمّتهم فاقت درجةَ النبوة، وشاركت الألوهية، وهذا كفرٌ صريحٌ، قال الحافظ ابن الجوزي متحدّثًا عن غلوّهم في عليّ رضي الله عنه: «فمنهم من كان يقول: هو الإله، ومنهم من يقول: هو خيرٌ من الأنبياء»[4].

وأما زعمُهم أنّ أئمَّتهم خيرٌ من الأنبياء فهو مخالفٌ لعقيدة الإسلام، قال الإمام الطحاوي الحنفي في بيان اعتقاد أهل السنّة: «ولا نفضّل أحدًا من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول: نبيٌّ واحدٌ أفضل من جميع الأولياء»[5]، وقال القاضي عياض: «نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم: إنّ الأئمة أفضل من الأنبياء»[6].

يقال: «أكذب من رافضي»، فهل هذا القول صحيحٌ؟

هي عبارةٌ سارت مثلاً، وأصلُها: اتفاق علماء الجرح والتعديل على أنّ الكذب في الشيعة أظهرُ منه في سائر الطوائف، قال يزيد بن هارون رحمه الله: «يُكتب عن كلّ مُبتدع إذا لم يكن داعِيةً إلّا الرافضة؛ فإنّهم يكذبون»، وقال محمد بن سعيد الأصفهاني: سمعت شريكًا يقول: «احمل العلم عن كلّ من لقيته إلا الرافضة»[7]. وقديمًا قال الشافعي رحمه الله: «لم أرَ أحدًا من أصحاب الأهواء أشهدَ بالزور من الرافضة»[8].

هل ثبت عليهم الكذب على رسول الله ﷺ؟

اختلق الرافضة على رسول الله ﷺ آلاف الأحاديث واخترعوا آلاف القصص لتأييد عقائدهم ومواقفهم السياسية. قال حماد بن سلمة رحمه الله: «حدثني شيخٌ لهم -يعني من الرافضة- تاب، قال: كنا إذا اجتمعنا واستحسنّا شيئًا جعلناه حديثًا»[9]. وليس هذا بغريبٍ عند مَن كانت التقيّة

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (١/١١٣).
(٢) العواصم من القواصم، لأبي بكر بن العربي، ص (٣١٤).
(٣) صب العذاب على من سب الأصحاب، للألوسي، ص (٢٧٨).
(٤) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص (٨٧).
(٥) العقيدة الطحاوية، ص (٣٠-٣١).
(٦) الشفا، للقاضي عياض (٢/٢٩٠).
(٧) المنتقى من منهاج الاعتدال، للذهبي، ص (٢٢).
(٨) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، ص (١٢٦).
(٩) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (١/١٣٨) (١٦٢).

واجبةً في اعتقاده، بينما هي من النفاق عند أهل السنّة، كما نقل ذلك السرخسي الحنفي في مبسوطه عن جماعةٍ من السلف[١].

نكاح المتعة:

أجمع علماء أهل السنّة على تحريم نكاح المتعة، قال أبو العباس القرطبي رحمه الله: «أجمع السَّلف والخلف على تحريمها، ... إلا الرافضة، ولا يُلتَفت لخلافهم؛ إذ ليسوا على طريقة المسلمين»[٢]. بل عدُّوه زنًا صريحًا، قال ابن رشد المالكي رحمه الله: «وأمّا مَن تواطأ مع امرأةٍ فيما بينه وبينها على أن يطأها ويستمتع بها مدّةً من الزمان على شيءٍ يبذله لها من ماله فليس ذلك بنكاح المتعة وإن سميناه نكاحًا، وإنّما هو زنًا»[٣].

زكاةٌ أم سرقةٌ باسم الخمس؟

لا فرق بين معمَّمي الشيعة في سرقة أموال الناس باسم الخُمس، وبين الأحبار والرهبان الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. ولمن يسأل عن سبب تمسُّك الشيعة بعقيدتهم رغم بيان فسادها، يقول الدكتور علي السالوس: «وأعتقد أنّه لولا هذه الأموال لما ظلّ الخلاف قائمًا بين الجعفرية وسائر الأمّة الإسلامية إلى هذا الحدّ، فكثيرٌ من فقهائهم يحرصون على إذكاء هذا الخلاف حرصهم على هذه الأموال»[٤].

لقد جمعت هذه الطغمة الفاسدة بين أخبث فاحشتين؛ السرقة والزنا باسم الخمس والمتعة، يقول الشيخ شحاتة صقر: «إنّ فساد الإنسان يأتي من طريقين: الجنس والمال، وكلاهما متوافرٌ لعلماء الشيعة؛ فالفروج والأدبار عن طريق المتعة وغيرها، والمال عن طريق الخمس وما يُلقَى في العتبات والمشاهد، فمَن منهم يصمد أمام هذه المغرِيات؟»[٥].

«إنّ فساد الإنسان يأتي من طريقين: الجنس والمال، وكلاهما متوافرٌ لعلماء الشيعة؛ فالفروج والأدبار عن طريق المتعة وغيرها، والمال عن طريق الخمس وما يُلقَى في العتبات والمشاهد، فمَن منهم يصمد أمام هذه المغرِيات؟»

الشيخ شحاتة صقر (الشيعة هم العدو فاحذرهم)

مناسك المشاهد والأضرحة:

يُعرف عن الرافضة تعظيمهم القبور والمشاهد، وتخريب المساجد، قال ابن تيمية رحمه الله: «فتجدهم يعطّلون المساجد التي أمر الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، فلا يصلّون فيها جمعةً ولا جماعةً، وليس لها عندهم كبير حرمةٍ، وإن صلوا فيها صلوا فيها وحدانًا، ويعظّمون المشاهد المبنية على القبور فيعكفون عليها مشابهةً للمشركين، ويحجّون إليها كما يحجّ الحاجّ إلى البيت العتيق، ومنهم من يجعل الحجّ إليها أعظم من الحجّ إلى الكعبة»[٦].

كيف يجرؤون على الطعن بمن زكاه الله؟

لم يُرِد الشيعة بطعنهم في صحابة الرسول ﷺ إلا الطعنَ في دين الإسلام، وإبطال شرائع المسلمين، قال أبو زرعة الرازي رحمه الله: «إذا رأيتَ الرجُل ينتقِصُ أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنّه زنديقٌ؛ وذلك أنّ الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حقٌّ، وإنّما أدّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحابُ رسول الله ﷺ، وإنّما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنّة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة»[٧]. وما قاله هؤلاء الفجرة في الصحب الكرام رضي الله عنهم تنزه اليهود والنصارى عنه في أصحاب موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وهذا ما ذكره بحروفه الإمام أبو بكر بن العربي المالكي حين قال: «ما رضِيَت النصارى واليهود في أصحاب موسى وعيسى ما رضيت الروافض في أصحاب محمد ﷺ، حين حكموا عليهم بأنّهم قد اتفقوا على الكفر والباطل»[٨].

(١) ينظر: المبسوط، للسرخسي (٤٥/٢٤).
(٢) المفهم، للقرطبي (٩٣/٤).
(٣) مسائل أبي الوليد ابن رشد (١١٢٠/٢).
(٤) مع الاثني عشرية في الأصول والفروع، لعلي السالوس، ص (١١١٦).
(٥) الشيعة هم العدو فاحذرهم، لشحاتة صقر، ص (٩٥).
(٦) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٤٧٤/١).
(٧) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، ص (٦٧).
(٨) العواصم من القواصم، لأبي بكر بن العربي، ص (١٩٢).

وقد حكم كثيرٌ من العلماء بتكفير هذه الطائفة المارقة لطعنهم في صحابة رسول الله ﷺ، فقد روى الخلال بسنده عن مالك -رحمه الله- أنّه قال: «الذي يشتم أصحاب النبي ﷺ ليس له سهمٌ، أو قال: نصيبٌ في الإسلام»[١]. وسئل أحمد بن حنبل -رحمه الله- عمّن يشتم رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فقال: «ما أراه على الإسلام»[٢]. وقال أبو المحاسن الواسطي: «إنّهم يكفرون بتكفيرهم لصحابة رسول الله ﷺ، الثابت تعديلهم وتزكيتهم في القرآن بقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وبشهادة الله تعالى لهم أنّهم لا يكفرون بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]»[٣]. وهذا ليس حكم أهل السنة والجماعة فقط فيهم، فهذا الإمام الشوكاني الزيدي -والزيدية فرقةٌ شيعيةٌ معروفةٌ- يقول: «أصل دعوتهم -أي الروافض- لكِياد الدين، ومخالفة شريعة المسلمين، ... فعرفتَ بهذا أنّ كلّ رافضيٍّ خبيثٍ على وجه الأرض يصير كافرًا بتكفيرهم لصحابيٍّ واحدٍ، ... فكيف بمن كفَّر كلّ الصحابة، واستثنى أفرادًا يسيرةً»[٤].

معاوية.. ستر الصحابة:

كلّ فضلٍ نُسبَ إلى الصحابة في الآثار يجب لهم عمومًا، وإنّ الطعنَ بواحدٍ منهم كالطعن بهم جميعًا؛ ولذلك كان حُبُّ معاوية ﷺ ميزانًا للسنّة، فقد سئل الإمام النسائي -رحمه الله- عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ صاحبِ رسول الله ﷺ، فقال: «إنّما الإسلام كدارٍ لها بابٌ، فباب الإسلام الصحابة، فمن آذى الصحابة إنّما أراد الإسلام، كمن نقر الباب إنّما يريد دخول الدار، قال: فمن أراد معاوية فإنّما أراد الصحابة»[٥]. والسبب في ذلك أنّه إذا تجرأ على معاوية ﷺ فإنّه يكون قد أزال هيبة الصحابة من قلبه، فيقعُ فيهم، قال الربيع بن نافع: «معاوية بن أبي سفيان ﷺ سِتْرُ أصحاب رسول الله ﷺ، فإذا كشف الرجل الستر اجترأ على ما وراءه»[٦].

الحَصَان الرزان عائشة أم المؤمنين ﷺ:

ما يزال أكثر الشيعة مصرّين على قذف أمّ المؤمنين عائشة ﷺ بالفاحشة، رغم تبرئة الله لها في كتابه الكريم، وهذا كفرٌ لا يمتري فيه عاقلٌ، يقول الهيتمي رحمه الله: «من نسب عائشة إلى الزنا كان كافرًا، وهو ما صرّح به أئمتنا وغيرهم؛ لأنّ في ذلك تكذيب النصوص القرآنية، ومكذّبها كافرٌ بإجماع المسلمين، وبه يعلم القطع بكفر كثيرين من غلاة الروافض»[٧]. حتى إنّ مَن شكّ في براءتها كفر، قال الإمام النووي رحمه الله: «براءة عائشة ﷺ من الإفك، وهي براءةٌ قطعيةٌ بنصّ القرآن العزيز، فلو تشكَّك فيها إنسانٌ -والعياذ بالله- صار كافرًا مرتدًا بإجماع المسلمين»[٨].

حمق الشيعة:

اتفقت كلمة العلماء على حُمق هذه الطائفة وغبائها، فهذا الإمام الشعبي رحمه الله يقول: «ونظرتُ في هذه الأهواء وكلَّمتُ أهلها، فلم أر قومًا أقلّ عقولاً من الخشبية[٩]»[١٠]. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «عاشرتُ النّاس، وكلّمتُ أهل العلم، فما رأيت قومًا أَوسَخَ وَسَخًا ولا أضعف حُجّةً من الرافضة، ولا أحمق منهم»[١١]. وهذا واضحٌ من طقوسهم في عاشوراء، وفتاويهم الشاذّة والغريبة، يقول محمود شكري الألوسي رحمه الله: «وأين هم من لطم الخدود، وشقّ الجُيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية، وغير ذلك من الفضائح التي تصدُر منهم في محرّم وغيره، حتى صاروا بها مُثلةً بين الأنام، وأضحوكةً بين الخاص والعام»[١٢].

---

(١) السنة، للخلال (٤٩٣/٣) (٧٧٩).
(٢) المرجع السابق (٤٩٣/٣) (٧٨٢).
(٣) المناظرة بين السنة والرافضة، للواسطي، ص (٢٦٦).
(٤) نثر الجوهر على حديث أبي ذر، للشوكاني، ص (١١٠-١١١).
(٥) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٣٣٩/١).
(٦) تاريخ بغداد، للخطيب (٢٠٩/١)، وتاريخ دمشق، لابن عساكر (٢٠٩/٥٩).
(٧) الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، لابن حجر الهيتمي (١٩٣/١).
(٨) شرح النووي على مسلم (١١٧/١٧).
(٩) من أسماء الرافضة القديمة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كما كانوا يسمون الخشبية لقولهم: إنا لا نقاتل بالسيف إلا مع إمام معصوم، فقاتلوا بالخشب» منهاج السنة النبوية (٣٦/١).
(١٠) السنة، لعبد الله بن أحمد، (٥٤٨/٢) (١٢٧٤).
(١١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣٢٧/١٦).
(١٢) صب العذاب على من سب الأصحاب، للألوسي، ص (٣٢٣).

يُعرف عن الرافضة تعظيمهم القبور والمشاهد وتخريب المساجد، وطعنهم في صحابة الرسول ﷺ بهدف الطعن في الإسلام، والإصرار على قذف أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وممارسة الطقوس الشاذّة -لا سيما في محرّم- والتي صاروا بسببها أضحوكةً بين الناس

كيف نتعامل معهم في الصلاة خلفهم، ودفن موتاهم، وعيادة مرضاهم؟

نهى السلف عن الصلاة خلفهم، قال سفيان بن عُيَينَة رحمه الله: «لا تصلوا خلفَ الرافضي»[١]. أمّا سائر الأحكام فقد لخّصها إمام أهل الحديث الإمام البخاري رحمه الله بقوله: «ما أبالي صليتُ خلف الجهْمي والرافض أم صلَّيت خلف اليهود والنصارى، ولا يسلَّم عليهم، ولا يُعَادُون، ولا يناكحون ولا يُشهدون، ولا تُؤكل ذبائحهم»[٢]. وقال طلحة بن مصرّف: «الرافضة لا تُنكح نساؤهم، ولا تُؤكل ذبائحهم؛ لأنّهم أهل ردةٍ»[٣]. وهذا ما أكّده البغدادي في الفِرق حيث قال: «وأما أهل الأهواء من الجارودية والهشامية والنجّارية والجهمية والإمامية الذين أكفروا خيار الصحابة... فإنّا نكفّرهم كما يكفرون أهل السنة، ولا تجوز الصلاة عليهم عندنا، ولا الصلاة خلفهم»[٤].

ونَهَوا كذلك عن أكل ذبائحهم، قال أحمد بن يونس: «لو أن يهوديًّا ذبح شاةً، وذبح رافضيٌّ، لأكلت ذبيحة اليهودي ولم آكل ذبيحة الرافضي؛ لأنّه مرتدٌ عن الإسلام»[٥]. حتى إنّ جنازتهم تختلف عن جنازة أهل السنّة، فقد سئل الفِريابي عمّن

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي (٨١١/٤) (١٣٦٤).
(٢) خلق أفعال العباد، للبخاري، ص (١٢٥). معنى (لا يُعادون): من عيادة المريض، أي زيارته.
(٣) الإبانة الصغرى، لابن بطة، ص (١٠١).
(٤) الفَرق بين الفِرق، للبغدادي، ص (٣٥٧).
(٥) الصارم المسلول، لابن تيمية، ص (٥٧٠).

شتم أبا بكر، قال: كافرٌ، قال: فيصلى عليه؟ قال: لا، وسألته: كيف يصنع به وهو يقول: لا إله إلا الله؟ قال: لا تلمسوه بأيديكم، ارفعوه بالخشب حتى تواروه في حفرته»[١].

حتى إنّ الإمام مالكًا -رحمه الله- لم يجعل لهم نصيبًا في الفيء، فقد قال: «من سبّ أصحاب رسول الله ﷺ فليس له في الفيء حقٌّ؛ يقول الله عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الحشر: ٨] الآية. هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ الذين هاجروا معه، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: ٩] هؤلاء الأنصار، ثمّ قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] فالفيء لهؤلاء الثلاثة؛ فمن سبّ أصحاب رسول الله ﷺ فليس من هؤلاء الثلاثة، ولا حق له في الفيء»[٢].

تقاربٌ أم إضلالٌ؟

خُدع الكثيرون بخدعة التقارب مع الشيعة، والآن بتنا على يقين أنّ المقصود من هذه الدعوة تقريب أهل السنّة إلى مذهب الشيعة، وليس تقريب كلّ من المذهبين إلى الآخر، قال الشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله: «إنّ استحالة التقريب بين طوائف المسلمين وبين فرق الشيعة هي بسبب مخالفتهم لسائر المسلمين في الأصول»[٣].

والدليل على ذلك حال أهل السنّة في دولة إيران الشيعية التي يصفها أبو الفضل البرقعي وهو الشيعي أصلاً قبل أن يهتدي إلى الحقّ: «إنّه في بلدنا هذا يستطيع المسيحي واليهودي والعلماني والذي لا دين له أن يعيش بكل راحةٍ، أما أهل السنّة فلا راحة لهم في بلدنا، ولا يستطيعون العيش بين هؤلاء المشركين»[٤].

هلّا خالطتموهم؟

قد يعترض معترضٌ قائلاً: هلّا عاشرتموهم، فالقوم في الحقيقة غير المسطور في كتبهم، والردُّ ما ذكره الدكتور أحمد الأفغاني في كتابه (سراب في إيران) حينما قال: «لقد عشت مع شيعة العراق وإيران والسعودية ولبنان ثماني سنواتٍ محاورًا ومناقشًا، وقد اتّضح لي على وجه اليقين أنّهم صورةٌ طبق الأصل من كتبهم السوداء المنحرفة»[٥]. نخلص مما سبق إلى أنّ الدعوة إلى التقارب بين السنة والشيعة هي تمامًا كالدعوة إلى وحدة الأديان.

> **خُدع الكثيرون بخدعة التقارب مع الشيعة، والآن بتنا على يقينٍ أنّ المقصود من هذه الدعوة تقريب أهل السنة إلى مذهب الشيعة، وليس تقريب كل من المذهبين إلى الآخر**

خاتمة:

في ختام رحلتنا هذه في أقوال أهل العلم في طائفة الرافضة الخبيثة نقول لمن ما زال مصرًا على إحسان الظنّ بهم أو متشككًا في مروقهم وفجورهم: أنّ الإمام الباقلاني كتب كتابًا سمّاه (كشف الأسرار وهتك الأستار)، بيّن فيه فضائحهم وقبائحهم، ومما قاله: «هم قومٌ يظهرون الرفض، ويبطنون الكفر المحض»[٦]، وقال الشيخ أبو حامد محمد المقدسي بعد حديثه عن فرق الرافضة وعقائدهم: «لا يخفى على كلّ ذي بصيرةٍ وفهمٍ من المسلمين أنّ أكثر ما قدمنا في الباب قبله من عقائد هذه الطائفة الرافضة على اختلاف أصنافها كفرٌ صريحٌ، وعنادٌ مع جهلٍ قبيحٍ، لا يتوقف الواقف مع تكفيرهم والحكم عليهم بالمروق من دين الإسلام»[٧].

(١) السنة، للخلال (٥٦٦/٢).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي (١٣٤٤/٧).
(٣) الخطوط العريضة، لمحب الدين الخطيب، ص (٤٣).
(٤) ينظر: الشيعة هم العدو فاحذرهم، لشحاتة صقر، ص (١٨٧).
(٥) سراب في إيران، لأحمد الأفغاني، ص (١٤).
(٦) ينظر: البداية والنهاية، لابن كثير (١١/١٣).
(٧) رسالة في الرد على الرافضة، لأبي حامد المقدسي، ص (٢٠٠).

الذكاء الاصطناعي: يُعيد صياغة مستقبل البحث الرقمي

د. مصطفى يعقوب (*)

يشهد البحث الرقمي تحولاً جذريًا بفضل الذكاء الاصطناعي، وقد أعادت تطوراته تعريف التفاعل مع المعلومات من البحث التقليدي إلى المحادثات التفاعلية، كما تُقدم محركات الذكاء الصناعي: معالجة فورية للمعلومات، وفهمًا سياقيًا عميقًا، وتفاعلاً تراكميًا. ورغم المزايا الثورية تواجه: تحديات قانونية، ودقة النتائج، والخصوصية. ويعِدُ المستقبل بفرص هائلة في نشر المعرفة، لكنه يتطلب توازنًا بين التقدم التقني والقيم الإنسانية.

في مشهدٍ مثيرٍ من سباقِ التقنيةِ العالميّ؛ يشهد عالم البحث الرقمي تحولاً جذريًا غير مسبوق. فإطلاق OpenAI لمحرّك بحثٍ ثوري مدمجٍ في ChatGPT، ورَدُّ غوغل السريع بمشروع Gemini AI، يُمثلان بداية حِقبةٍ جديدةٍ في عالم المعرفة الرقمية. هَذا التنافسُ المحتدمُ بين العملاقين يَعِدُ بتطوراتٍ تقنيةٍ مذهلة، ويدفعُ نحو تسريعٍ خطى الابتكار في مجال البحث الذكي. إنها لحظةٌ تَاريخيةٌ تُعيدُ تشكيل علاقتنا بالمعرفة، وتُمهدُ الطريق لعصرٍ جديدٍ من التفاعلِ الطبيعي مع المعلومات، متجاوزةً الحدود التقليديةَ للبحثِ الرقمي.

١. الثورةُ التقنيةُ في عالم البحث - تحولٌ جذريٌّ في النُّظمِ المعرفية:

استحال التطورُ التقنيُّ في محركِ OpenAI الجديدِ معلمًا فارقًا في عالم البحث الرقمي، إذ يتجلى عبرَ أربعةِ أبعادٍ جوهريةٍ تُشكلُ منعطفًا تاريخيًا في مسيرة التقنية، فلأولِ مرةٍ يشهدُ العالمُ تناغمًا فريدًا بين عبقرية الذكاءِ الاصطناعيِّ وسلاسةِ التجربةِ البشرية.

» البعدُ الأول: بحثٌ حيٌّ متفاعل:

يُرسي المحركُ الجديدُ نهجًا ثوريًا في استنطاق المعرفة، متجاوزًا حدودَ البحث التقليدي. فبدلَ الاكتفاءِ

(*) باحث متخصص في تطبيقات الذكاء الاصطناعي والدراسات القرآنية.

بإدخالِ الكلماتِ المفتاحية، يستطيع المستخدم أن يحاورَ المحرك بلغته الطبيعية مهما تعقدت استفساراته، ليظفرَ بإجاباتٍ وافيةٍ دقيقة، مُرتقيًا بالبيانات الخام إلى آفاق صناعةِ القرارِ عبر أربعِ مراتبَ سامية:

١. البياناتُ الخامُ (Data) حجرُ الأساس في صرح المعرفة الرقمية؛ كأبجديةٍ تنتظرُ من يُحسن نظمَها في عقدٍ فريد.

٢. تنصهرُ البيانات الخام في بوتقة المعلوماتِ (Information) حين تكتسي ثوبَ المعنى. وتنفرد تقنيةُ ChatGPT بقدرةٍ فذّةٍ على صهرِ شتاتِ البياناتِ في قالبٍ منطقيٍّ مُيسّر.

٣. تتسامى المعلومات لتتبلورَ معرفةً (Knowledge) تستجلي خفايا العلاقاتِ وتستكشفُ الأنماط الدفينة. وهنا يتألقُ ChatGPT في سبر أغوارِ التعقيداتِ وكشف مكنوناتِها.

٤. وفي ذروة الهرم المعرفيّ تتجلى الحكمةُ (Wisdom) كأسمى غاياتِ نموذج ITIL؛ حيث يَعبُرُ الذكاءُ الاصطناعي من ضفافَ المعرفةِ إلى آفاقِ استشرافِ المستقبلِ وصياغةِ القراراتِ السديدة. ويتجسدُ ذلك في قدرةِ ChatGPT على ابتكارِ الحلولِ واستشفافِ المستقبلِ انطلاقًا من تحليلٍ عميقٍ للمعطيات.

» البعد الثاني: معالجةٌ آنيّةٌ للمعرفة:

يتفرّدُ المحركُ بقدرةٍ استثنائيةٍ على المعالجةِ اللحظيةِ للمعلومات، متخطيًا حدود الأنظمة التقليديةِ المقيدةِ ببياناتِها المخزونة؛ فهو لا يكتفي بتحليلِ المعطيات المتاحة فحسب، بل يمتد نطاقُ ذكائه ليشمل القدرة على التعلم المباشرِ من محاوريه، مستوعبًا معارفَ جديدةً يُثري بها حواراتِه اللاحقة. جاء في تقريرِ «التكنولوجيا المتقدمة ٢٠٢٤»: «يمتازُ النظامُ بقدرتِه على استيعابِ المعرفةِ الجديدةِ وإعادةِ توظيفِها في سياقاتٍ مختلفة، محولاً كلَّ تفاعلٍ إلى فرصةٍ للإثراءِ المعرفيّ»[١].

» البعد الثالث: خوارزميّاتُ الذكاءِ الاصطناعيّ المتقدمة:

يستندُ المحركُ إلى جيلٍ ثوريٍّ من خوارزمياتِ التعلمِ العميق، مدعومةً بأحدث التقنياتِ التي تُمكنُها من تنفيذِ عملياتِ المعالجةِ المعقدة. تتميزُ هذه الخوارزمياتُ بقدرتِها الفائقةِ على استيعابِ السياقِ المتعددِ الأبعادِ للاستعلامات، وتفكيكِ العلاقاتِ المتشابكةِ بين المعلومات، وتوليدِ إجاباتٍ متناسقةٍ ومنطقية. ولا يقتصرُ الأمرُ على التكيّفِ مع احتياجاتِ المستخدمِ المتغيرةِ فحسب، بل يمتدُ ليشمل فهمَ شخصيتِه وسياقِ حياته وتاريخِ تفاعلاتِه مع المنصة، مُشكلاً ذاكرةً تراكميةً تُمكنُ المحركَ من تقديمِ تجربةٍ مخصصةٍ تمامًا لكل مستخدم؛ يقول البروفيسور جيمس ويلسون من جامعة ستانفورد: «تُمثلُ هذه التقنيات قفزةً نوعيةً في قدرةِ الآلاتِ على فهمِ وتحليلِ المعلوماتِ بطريقةٍ تُحاكي الذكاء البشري»[٢].

» البعد الرابع: التكاملُ مع ChatGPT :

يُشكلُ دمجُ محركِ البحث مع منصّةِ ChatGPT نقلةً نوعيةً في تجربةِ المستخدم، فهذا التكامل يتيحُ إجراءَ محادثاتٍ متعددةِ الخطواتِ حول موضوعٍ معين، وتنقيحَ النتائج بناءً على التفاعل المستمر، والحصولَ على توضيحاتٍ وشروحاتٍ إضافية دون الحاجةِ لبدء بحثٍ جديد.

وتظهر الدراسات الأولية أنَّ هذا التكاملَ يُحسّنُ من دقةِ النتائجِ بنسبةِ ٧٨٪ مقارنةً بمحركاتِ البحثِ التقليدية[٣].

تأثيرٌ عميقٌ على مستقبل البحث: إنَّ هذه الأبعادَ التقنيةَ الأربعة لا تُمثلُ فقط تطورًا في الأدوات المتاحة، بل تعيدُ تشكيل علاقتنا بالمعرفة ذاتِها، فكما يؤكدُ تقرير «مستقبل التكنولوجيا ٢٠٢٤»: «نحن نشهد تحولاً جذريًا في كيفية وصول البشرِ إلى المعرفة، يُماثِلُ في أهميته اختراعَ الطباعة»[٤].

> **استحال التطورُ التقنيُّ في محرك OpenAI الجديدِ معلمًا فارقًا في عالمِ البحثِ الرقمي، إذ يتجلى عبرَ أربعةِ أبعادٍ جوهريةٍ تُشكلُ منعطفًا تاريخيًا في مسيرةِ التقنية. فلأولِ مرةٍ يشهد العالم تناغمًا فريدًا بين عبقريةِ الذكاءِ الاصطناعيِّ وسلاسةِ التجربةِ البشرية**

(١) Advanced Technology Report, 2024, p.45.
(٢) Wilson, J., AI Frontiers, 2024, Vol.8, p.234.
(٣) Tech Analysis Quarterly, 2024, Issue 2.
(٤) Future of Technology Report, 2024.

٢. المزايا الثورية لمحرك OpenAI - نقلةٌ نوعيةٌ في تجربة البحث:

كشفت OpenAI عن مجموعةٍ من المزايا الثوريةِ التي تُميزُ محرك بحثها الجديد، والتي تتجاوزُ حدودَ ما كنا نعرفهُ عن محركاتِ البحث التقليدية.

» الميزة الأولى.. التفاعل المتطور:

يتجاوزُ نمطُ المحادثةِ التفاعليةِ النموذجَ التقليديَّ لعرضِ النتائج، فبدلاً من قائمةِ روابط؛ يقدمُ المحركُ إجاباتٍ مباشرةً ومفصَّلة، وإمكانيةَ طرحِ أسئلةٍ توضيحية. ويتميزُ هذا التفاعلُ بطبيعتهِ التراكمية، حيثُ تُبنى كل إجابةٍ على سياقِ المحادثاتِ السابقةِ وتاريخِ التفاعل، مما يُعمِّقُ فهمَ المحركِ لاحتياجاتِ المستخدم.

» الميزة الثانية.. توثيق المصادر والمرونة في التعامل:

يقدمُ المحرك خياراتٍ متعددةً للتعامل مع المصادر، حيثُ يمكنُ للمستخدم تحديدُ نطاقِ المصادرِ التي يرغبُ في الاعتمادِ عليها. فالشفافيةُ وتوثيقُ المعلوماتِ يمثلانِ وظيفةً يمكنُ تخصيصُها وفقَ احتياجاتِ المستخدم، كما يؤكد تقريرُ Privacy International: «يُقدمُ محركُ OpenAI مرونةً في التعاملِ مع المصادرِ وتوثيقِها»[١].

» الميزة الثالثة.. تجربة المستخدم المتكاملة:

يقدمُ المحركُ واجهةً بسيطةً سهلةَ الاستخدام، مع تكاملٍ مع منصَّةِ ChatGPT. ومع ذلك، تجدرُ الإشارةُ إلى بعضِ القيودِ الحالية، مثلَ محدوديةِ البحثِ في المحادثاتِ السابقة، وإمكانيةِ ظهورِ تباينٍ في النتائجِ بينَ جلساتِ البحثِ المختلفة. كما أنَّ المحركَ قد يقدمُ أحياناً اجتهاداتٍ غيرَ دقيقةٍ تتطلبُ المراجعةَ والتدقيق.

٣. استراتيجيةُ جوجل في مواجهةِ التحدي - صحوةُ العملاق:

في سياقِ تطورِ الذكاءِ الاصطناعي، يبرزُ مشروعُ Gemini AI من جوجل كحلقةٍ متقدمةٍ في سلسلةِ مشاريعها التي بدأت منذ ٢٠٠٦. فالشركةُ -التي أرست قواعدَ البحثِ الرقميِّ- تواصلُ مسيرتَها في تطويرِ تقنياتِ الذكاءِ الاصطناعيِّ عبر مشروعِها الطموح، الذي يمثلُ نقلةً نوعيةً في تاريخِها.

يتميزُ Gemini AI بقدراتهِ المتقدمةِ في معالجةِ اللغاتِ الطبيعية، ودمجِ الوسائطِ المتعددة من نصٍّ وصورٍ وصوت، ومعماريتهِ المُحسنةِ للأداءِ في الوقتِ الفعلي. وتتمحورُ استراتيجيةُ جوجل حولَ عدةِ ركائزَ أساسية:

- دمجُ تقنياتِ Gemini في منظومةِ خدماتِ جوجل المتنوعة.
- تطويرُ واجهاتٍ تفاعليةٍ ذكيةٍ للمستخدمين.
- الاستثمارُ في البنيةِ التحتيةِ لتقنيةِ المعلومات.
- توسيعُ شبكةِ مراكزِ البياناتِ العالمية.
- استقطابُ الكفاءاتِ وتطويرُ الخبرات.
- إنشاءُ مراكزَ للتدريبِ والبحثِ العلمي.

ووفقًا لتقريرِ Alphabet Financial Report: «خصصت الشركةُ ٢٣ مليارَ دولارٍ للاستثمارِ في البنيةِ التحتيةِ للذكاءِ الاصطناعي خلال عامِ ٢٠٢٤»[٢]. هذه الخطواتُ المدروسةُ تعكسُ التزامَ جوجل بمواصلةِ ريادتِها في مجالِ التقنياتِ المتقدمة.

كما اتخذت جوجل خطواتٍ استباقيةً في استقطابِ المواهبِ والخبرات وتوظيفِ كبارِ الباحثين في مجالِ الذكاءِ الاصطناعي، وتأسيسِ مراكزَ بحثيةٍ جديدةٍ حولَ العالم، وإطلاقِ برامجَ تدريبيةٍ متقدمة.

وعزَّزت جوجل موقعَها من خلال شراكاتٍ مع كبرى المؤسساتِ الأكاديمية، وتحالفاتٍ مع شركاتِ التكنولوجيا الرائدة، وتعاونٍ وثيقٍ مع ناشري المحتوى العالميين.

> **يتميزُ محرك Gemini AI بقدراتهِ المتقدمةِ في معالجةِ اللغاتِ الطبيعية، ودمجِ الوسائطِ المتعددة من نصٍّ وصورٍ وصوت، ومعماريتهِ المُحسنةِ للأداءِ في الوقتِ الفعلي**

(١) Privacy International Report, «AI Search Transparency», 2024.

(٢) Alphabet Q1 Financial Report, 2024.

نصائحُ عملية للتعامل الأمثل مع محركات البحث الذكيّة

٤. التحديات والمعوّقات - معركةٌ متعددةُ الجبهات:

في خِضمِّ هذا التحولِ الثوري في عالمِ البحثِ الرقمي، تتشابكُ التحدياتُ على مستوياتٍ متعددة:

» التحدياتُ القانونية والتشريعية:

تواجهُ OpenAI معركةً قضائيةً غيرَ مسبوقةٍ مع صحيفةِ نيويورك تايمز وغيرها، تتمحورُ حولَ استخدامِ المحتوى المحمي بحقوقِ النشر، وآلياتِ تدريبِ نَماذجِ الذكاءِ الاصطناعي. ويقولُ المحامي جوناثان كينَج: «هذه القضيةُ ستشكلُ سابقةً قانونيةً في تحديدِ العلاقةِ بين الذكاءِ الاصطناعي وحقوقِ النشر»[١].

» تحدياتُ الدقةِ والموثوقية:

تكشفُ دراسةُ معهدِ MIT حقيقةً مقلقة: «٤٥٪ من المعلوماتِ الـمُلخَّصةِ آليًا تفقدُ سياقَها الأساسي»[٢]. ويضيفُ د. روبرت تشانج: «التحدي الأكبرُ يكمنُ في تحقيقِ التوازنِ بين السرعةِ والدقةِ وكفاءةِ الموارد»[٣].

» تحديات البنيةِ التحتية:

يبرزُ استهلاكُ الطاقةِ كتحدٍّ جوهري، حيثُ تضطرُ شركاتُ التقنيةِ لامتلاكِ مولداتٍ نوويةٍ مستقلةٍ لتلبيةِ احتياجاتِها المتزايدة من الطاقة.

» تحديات الخصوصيةِ والأمان:

يُحذّرُ تقريرُ Privacy International من جمعِ البياناتِ المفصلةِ عن سلوكِ المستخدمين[٤].

» التحدياتُ المجتمعيّة:

- مخاطرُ استخدامِ هذه التقنياتِ من قِبَلِ المراهقين والمجرمين.
- تأثيرُها على سوقِ العملِ بين إلغاءِ وظائفَ وتعزيزِ إنتاجيةٍ أخرى.
- سعيُ الحكوماتِ لتقنينِ استخدامِ الذكاءِ الاصطناعي.
- تداعياتُ التحولِ على قطاعِ الإعلانِ الرقمي والنشر.

هذه التحدياتُ تُثيرُ تساؤلاتٍ جوهريةً حولَ المعضلاتِ الأخلاقيةِ وحياديةِ النتائجِ وشفافيةِ ترتيبِها؛ مما يستدعي تضافرَ الجهودِ لإيجادِ حلولٍ متوازنة.

٥. آفاقُ المستقبل - تشكُّلُ عصرٍ جديدٍ من المعرفةِ الرقمية:

في خِضَمِّ هذا التحولِ التاريخيِّ في عالمِ البحثِ الرقمي، تتشكلُ ملامحُ مستقبلٍ يتجاوزُ كل ما عرفناهُ حتى الآن. فمع تسارعِ وتيرةِ التطورِ التقني، واحتدامِ التنافسِ بين عمالقةِ التقنيةِ

(١) Legal Tech Review, March 2024.
(٢) MIT Media Lab Study, 2024.
(٣) Stanford AI Lab Report, 2024.
(٤) Privacy International, «AI Search Privacy Concerns», 2024.

OpenAI ومايكروسوفت وجوجل، نقفُ على أعتابِ حقبةٍ جديدةٍ تُعيدُ تعريفَ علاقتِنا بالمعرفة.

يرى المحللُ التقني المخضرمُ جون آندرسون أنَّ المنافسةَ بين هذه الشركاتِ ستدفعُ نحو ابتكاراتٍ غيرِ مسبوقة؛ «نحنُ نشهدُ بدايةَ سباقِ تسلحٍ تقنيٍّ سيغيرُ وجهَ البحثِ الرقميِّ إلى الأبد»[١]. ويتوقعُ التقريرُ استثماراتٍ تتجاوزُ ٥٠ مليارَ دولارٍ في تطويرِ تقنياتِ البحثِ الذكي خلالَ السنواتِ الثلاثِ القادمة.

وتكشفُ دراسةٌ أجراها معهدُ ماساتشوستش للتكنولوجيا عن تغيرٍ جذريٍّ في طريقةِ تفاعلِ المستخدمين مع المعلومات. تقولُ د. سارة تشانج، كبيرةُ الباحثين في المعهد: «المستخدمونَ يتحولونَ من البحثِ السطحيِّ إلى المحادثاتِ العميقةِ مع محركاتِ البحث، إنه تحولٌ نحو نموذجٍ أكثرَ تفاعليةً وفهمًا»[٢].

يتنبأُ خبراءُ التكنولوجيا بمستقبلٍ يندمجُ فيه البحثُ الذكي مع تقنياتِ الواقعِ المعزَّز، حيث تتطورُ أدواتُ البحثِ لتحليلِ العالمِ من حولِنا في الوقتِ الفعلي، وتقديمِ معلوماتٍ سياقيةٍ غنيةٍ عن كل ما نراه.

يُمثلُ تطورُ محركاتِ البحثِ الذكيةِ أداةً مهمةً في نشرِ المعرفة؛ «هذه التقنياتِ ستُمكِّنُ مليارات البشرِ من الوصولِ إلى المعرفةِ بطريقةٍ أكثرَ فعاليةً وعمقًا»[٣].

ويرى علماءُ الاجتماعِ الرقمي أنَّ التحولَ في طريقةِ بحثِنا عن المعلوماتِ سيُؤثرُ عميقًا في طريقةِ تفكيرِنا وتعلمِنا. كتبَ البروفيسور مايكل ستيفنز في دوريةِ Digital Society: «نحنُ على أعتابِ ثورةٍ معرفيةٍ تُعادِلُ في أهميتِها اختراعَ الكتابة»[٤].

فنحنُ نقفُ على أعتابِ عصرٍ جديدٍ للمعرفةِ الرقمية، حيثُ يمثلُ الذكاءُ الاصطناعي أداةً مهمةً في رحلتِنا المعرفية.

> **يتنبأُ خبراءُ التكنولوجيا بمستقبلٍ يندمجُ فيه البحثُ الذكي مع تقنياتِ الواقعِ المعزَّز، حيث تتطورُ أدواتُ البحثِ لتحليلِ العالمِ من حولِنا في الوقتِ الفعلي، وتقديمِ معلوماتٍ سياقيةٍ غنيةٍ عن كل ما نراه**

٦. الاستفادةُ العمليةُ من محركاتِ البحثِ الذكية:

نحنُ ننتقلُ من عصرِ البحثِ البسيطِ إلى عصرِ المحادثةِ الذكيةِ مع المعلومات؛ فلم تعُد الكلماتُ المفتاحيةُ البسيطةُ كافية، ولا بد من معرفة فنِّ صياغةِ الاستعلامات، تخيل أنكَ تتحدثُ إلى خبيرٍ متخصص، اطرح أسئلتكَ بشكلٍ طبيعيٍ وتفصيلي، فبدلاً من كتابةِ «طقسُ إسطنبول غدًا»، جرِّب: «ما هو توقعُ درجاتِ الحرارةِ والرطوبةِ في إسطنبول غدًا، وهل تنصحُ بالقيامِ بأنشطةٍ خارجية؟».

استخدم المحركَ كمساعدٍ شخصيٍّ، فعندما تُخططُ لرحلةٍ، لا تسأل فقط عن الفنادقِ والمطاعم، بل اسأل عن تجاربِ السيّاحِ السابقين، والنصائحِ المحلّية، وأفضلِ الأوقاتِ للزيارة، فالمحركُ الذكيُ قادرٌ على ربطِ هذه المعلوماتِ معًا لتقديمِ خطةٍ متكاملة.

وأصبحَ بإمكانِ الباحثين استخدامُ المحركاتِ الذكيةِ لتحليلِ الأبحاثِ وإيجادِ الروابطِ بين الدراساتِ المختلفة، فالمحركُ لا يقدمُ فقط المراجعَ، بل يُحللُ العلاقاتِ ويقترحُ اتجاهاتٍ بحثيةً جديدة.

نصائحُ عمليةٌ للتعاملِ الأمثلِ مع محركاتِ البحثِ الذكية:

» أولاً: الاستخدامُ الفعال للتقنية:

- صُغ استفساراتِك بدقةٍ ووضوح، وحدّد هدفَك بعنايةٍ.
- استثمر ميزةَ التفاعلِ الحواري لتعميقِ فهمِك للموضوع.
- اطلب أمثلةً عمليةً وتطبيقاتٍ واقعيةً للمعلوماتِ المقدمة.
- استخدم المحركَ كمساعدٍ في التعلمِ وليس بديلاً عن التفكيرِ المستقل.

» ثانيًا: ضماناتُ الأمانِ والموثوقية:

- تحقق من دقةِ المعلوماتِ باستخدامِ مصادرَ متعددة.

(١) Tech Future Analysis, 2024.
(٢) MIT User Behavior Study, 2024.
(٣) UNESCO Digital Education Report, 2024.
(٤) Digital Society Journal, Vol. 15, 2024.

- لا تشارك معلوماتٍ شخصيةً أو حساسةً مع المحرك.
- راجعِ النتائجَ بعينٍ ناقدةٍ قبلَ اتخاذِ أيّ قرارٍ مهم.
- كن حذرًا عند استخدامِ المحركِ في المجالاتِ الشرعية أو الطبيةِ أو القانونيةِ أو المالية.

» ثالثًا: حمايةُ الأطفالِ والمراهقين:

- ضع قواعدَ واضحةً لاستخدامِ التقنيةِ في المنزل.
- علّم أبناءَك التفكيرَ النقديَّ والتحققَ من المعلومات.
- راقب وقتَ استخدامِهم للتقنيةِ وأنماطَ تفاعلِهم معها.
- شجّع على التوازنِ بين استخدامِ التقنيةِ والأنشطةِ الواقعية.

» رابعًا: التطويرُ المهني والوظيفي:

- استخدمِ المحركَ لتحسينِ مهاراتِك المهنية.
- تعلّم كيفيةَ دمجِ التقنيةِ في مجالِ تخصصك.
- طوّر قدراتِك في المجالاتِ التي لا يمكنُ أتمتتُها.
- استثمر في تعلّمِ المهاراتِ المستقبليةِ المطلوبة.

» خامسًا: الحفاظُ على الصحةِ النفسية:

- حدّد أوقاتًا للانقطاعِ عن التقنية.
- حافظ على التواصلِ البشريِّ المباشر.
- تجنّب الاعتمادَ المفرطَ على المحركِ في حلِّ المشكلات.
- طوّر مهاراتِك في التفكيرِ المستقلِ والإبداعي.

» سادسًا: الاستخدامُ الأخلاقيُّ والمسؤول:

- احترم حقوقَ الملكيةِ الفكرية.
- تجنّبِ استخدامَ المحركِ في أغراضٍ غيرِ مشروعة.
- ساهم في تحسينِ جودةِ المحتوى العربيّ.
- شارك معرفتَك وخبراتِك مع الآخرين.

خاتمة:

في نهايةِ هذه الرحلةِ الاستكشافيةِ في عالمِ محركاتِ البحثِ الذكية، نقفُ على مشارفِ عصرٍ جديدٍ يُعيدُ تشكيلَ علاقتِنا بالمعرفة. ففي الوقتِ الذي ظنَّ فيه العالمُ أنَّ عرشَ جوجل لا يُنافَس، جاءت ثورةُ OpenAI لتُغيّرَ قواعدَ اللعبة، وليردَّ العملاقُ التقليديِ بمشروعِ Gemini AI، مُشكلين معًا مشهدًا معرفيًّا غيرَ مسبوق.

نشهدُ تحولاً جذريًّا في آليةِ وصولِنا إلى المعلومات؛ فلم يعُدِ الأمرُ مجردَ كتابةِ كلماتٍ مفتاحيةٍ والحصولِ على قائمةِ روابط، بل أصبحنا نخوضُ حوارًا طبيعيًّا مع محركاتِ بحثٍ تفهمُ السياقَ وتستوعبُ المقصد. إنّه نموذجٌ جديدٌ في التفاعلِ مع المعرفة، يجمعُ بين قوةِ الحوسبةِ وطبيعةِ التواصلِ البشري.

ومعَ هذه القدراتِ الهائلةِ تأتي مسؤوليةٌ كبيرة؛ فنحنُ بحاجةٍ إلى تطويرِ ثقافةٍ رقميةٍ تُوازنُ بين الاستفادةِ من التقنيةِ وتعزيزِ الذكاءِ البشري. فالذكاءُ الاصطناعي ينبغي أن يكونَ منصةً لانطلاقِ الإبداعِ البشري، لا بديلاً عنه.

يبدو المستقبلُ واعدًا بإمكاناتٍ هائلة، لكن النجاحَ الحقيقيَّ يعتمدُ على قدرتِنا في تحقيقِ التوازنِ بين التقدمِ التقني والقيمِ الإنسانية، وضمانِ وصولٍ عادلٍ للمعرفة، مع الحفاظِ على جودةِ المحتوى وموثوقيته.

في هذا المنعطفِ التاريخي، نقفُ على أعتابِ ثورةٍ معرفيةٍ حقيقية. إنَّ نجاحَ محركاتِ البحثِ الذكيةِ لا يُقاسُ فقط بقدراتِها التقنية، بل بمدى مساهمتِها في تطويرِ المعرفةِ البشريةِ وتيسيرِ الوصولِ إليها. علينا أن نجمعَ بين التقنيةِ الحديثةِ والمنهجيةِ العلميةِ الرصينة، مستحضرين الغايةَ النبيلة في خدمةِ الإنسانية والتقربِ إلى الله تعالى بزيادةِ العلمِ النافعِ والعملِ الصالح؛ قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]؛ فالتقنيةُ وسيلةٌ لخدمةِ العلمِ والإنسان، وليست غايةً في ذاتِها.

يبدو المستقبلُ واعدًا بإمكاناتٍ هائلة، لكن النجاحَ الحقيقيَّ يعتمدُ على قدرتِنا في تحقيقِ التوازنِ بين التقدمِ التقني والقيمِ الإنسانية، وضمانِ وصولٍ عادلٍ للمعرفة، مع الحفاظِ على جودةِ المحتوى وموثوقيته

قيمة الإحسان: من العمل الفردي إلى الإصلاح المجتمعي

د. محمود حلمي (*)

الإحسان قيمة عليا وفلسفة حياة تعني سموّ الروح، وإخلاص النيّة، وإتقان العمل، وبذل الوسع في الرحمة بالخَلق. وتشتدّ الحاجة إلى هذه القيمة في هذا العصر الذي تزداد فيه غربة الدين، واضطراب العلاقات الإنسانية، وتفكّك المجتمعات، وغلبة الجانب المادّي وطغيانه. وفي هذا المقال توضيح لمفهوم الإحسان، وبيان جوانب تطبيقه، وخطوات نشره في المجتمع.

يُعتبر خُلق الإحسان في الإسلام قيمة عليا تُعبّر عن صفاء القلوب وإخلاص العمل، فالإحسان ليس مُجرّد إتقان لما يقوم به الإنسان، بل هو سلوك روحاني يعكس ارتباطًا عميقًا بين العبد وربه، حيث يراقب الله في كلّ خطوة من خطوات حياته. يقول النبي محمد ﷺ موضّحًا معنى الإحسان في حديث جبريل عليه السلام: (أن تَعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك)[1]، فهذا هو جوهر الإحسان الذي يتجاوز حدود العمل المادي ليشمل القلب والفكر والنيّة.

وفي العصر الحالي الذي تزايدت فيه التحدّيات الاجتماعية والنفسية أصبح مفهوم الإحسان أداة ضرورية لتعزيز العلاقات الإنسانية وتحقيق الإصلاح المجتمعي، فلا يقتصر الإحسان على الجوانب الفردية أو التعبّدية؛ بل يتعدّاها ليكون أسلوب حياة يجمع بين العمل الفردي والمصلحة الجماعية؛ لذا يجب تسليط الضوء على هذا المفهوم وبيان كيف يمكن تطبيقه في مختلف مناحِي الحياة؟

أولاً- خُلق الإحسان في دين الإسلام:

لا يقتصر الإحسان في الإسلام على العمل الظاهر فقط، بل يمتد ليشمل نيّة القلب وإخلاصه وسعيه لتحقيق الكمال في كلّ أعماله، سواء كانت ظاهرة أو باطنة؛ ففي الحديث النبوي الشريف وضع النبي ﷺ معيارًا شاملاً للإحسان، حيث قال:

(*) ماجستير في الدراسات الإسلامية، باحث تربوي وأكاديمي.

(١) أخرجه البخاري (٥٠) ومسلم (٨).

(الإحسانُ أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك)، فوضعَ هذا التعريف العميق للإحسان الأساسَ الذي يجب أن يتحرك عليه المسلم في كلّ جوانب حياته، كما أنّ الإحسان ليس مجرّد شعور بل هو دافع يفرض على الإنسان تحسين كلّ أفعاله وجعلها في أعلى درجات الإتقان، سواء في العبادات كالصلاة والصيام أو في التعاملات مع الناس في الحياة اليومية. فعلى سبيل المثال: الإحسان في المعاملة يشمل كلّ شيء، حتى في الأعمال التي قد تبدو صغيرة مثل إطعام الجار أو مساعدة المحتاج، بل يصل الإحسان إلى حدّ أنّه يشمل حتى الأعداء أو مَن قد يسيء للإنسان، كما يظهر في مواقف الرسول ﷺ، ومن ذلك: ما حصل في معركة بدر عندما أسر المسلمون سبعين رجلاً من المشركين، قال النبي ﷺ لأصحابه: (استوصوا بالأسارى خيرًا) فأمر بمعاملتهم معاملة حسنة، مع أنّهم أعداء محاربون قد تمكّن المسلمون منهم، وهذا يُظهر معنى الإحسان الحقيقي الذي يتجاوز المشاعر السلبية ويعزّز من القيم الإنسانية العليا. ومن أنواع الإحسان:

- **الإحسان في العبادة:** يتجلّى الإحسان في العبادة عندما يؤدّي الإنسان عباداته بإتقان وخشوع، وهو يشعر بأنّه واقف بين يدي الله عز وجل، مدركًا عظمة المقام الذي يقف فيه. هذا النوع من الإحسان يتجاوز الطقوس الظاهرية ليصل إلى أعماق الروح والقلب، فالإحسان في العبادة يعني الإخلاص التام لله، والحرص على أداء العبادات بمستوى عالٍ من التفاني والتفكّر، بما يجعل كلّ عبادة فرصة لتطهير النفس وتزكيتها.

مثال على ذلك: الصلاة، فهي ليست مجرّد أفعال حركية، بل هي وقوف أمام الله بقلب حاضر وعقل متدبّر، كذلك الصيام، الذي يُعَزِّز من صلة الإنسان بربّه من خلال الامتناع عن شهوات الدنيا تقربًا لله وطلبًا لمرضاته، فالإحسان في العبادة ليس مقصورًا على الفرائض فقط، بل يمتدّ إلى النوافل وكلّ ما يزيد عن الحدّ الأدنى الواجب، مثل قيام الليل أو قراءة القرآن بخشوع وتدبّر، فهذا النوع من الإحسان يرفع مستوى العبادة من مجرّد أداء واجب إلى تحقيق حالة من الرضا والطمأنينة الروحية.

- **الإحسان في المعاملة:** لا يقتصر الإحسان على العبادة فقط، بل يظهر أيضًا في كيفية تعامل الإنسان مع الآخرين في حياته اليومية، يقول رسول الله ﷺ: (إنَّ الله كتبَ الإحسانَ على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبح)[1]، هذا الحديث يوضح أنّ الإحسان ليس محصورًا في العبادات، بل هو سلوك يجب أن يمتدّ إلى كلّ جوانب الحياة، فمن صور الإحسان في المعاملة أن يكون الإنسان عادلاً ورحيمًا، لا يتسبّب بالأذى لغيره، ويحرص على تقديم العون والمساعدة للمحتاجين. فالإحسان إلى الوالدين برعاية حقوقهم والاعتراف بفضلهم، وكذلك الإحسان إلى الجار بمعاملته بالحسنى وتجنّب إيذائه.

ومن أسمى درجات الإحسان أن يعامل الإنسان مَن يسيءُ إليه بالحسنى، مستوحيًا هذا السلوك من مواقف الرسول ﷺ في حياته، كما يشمل الإحسان أيضًا: التعامل مع الحيوانات والنباتات وحتى البيئة المحيطة؛ بحيث يكون سلوك الإنسان مبنيًا على الرحمة والتقدير لكلّ ما خلق الله.

> **الإحسان ليس محصورًا في العبادات، بل هو سلوك يجب أن يمتدّ إلى كل جوانب الحياة**

ثانيًا- الإحسان في الأسرة:

خُلُقُ الإحسان في الأسرة هو حجر الأساس لبناء علاقات أسرية قوية ومتينة، فالإسلام شدَّد على قيمة الأسرة وبنائها بشكل سليم وعلى أسس مستقيمة، فالأسرة السليمة هي نواة بناء المجتمع المتوازن؛ لذا تتجلّى معاني الإحسان في الأسرة من خلال مظاهر عدّة مثل:

- **برّ الوالدين:** شَدَّد دين الإسلام على برّ الوالدين والإحسان إليهما، واعتبر ذلك من أعظم القربات التي يتقرّب بها الإنسان إلى الله تعالى، فقال الله عز وجل في مُحكم كتابه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فالإحسان إلى الوالدين ليس فقط في حدود الطاعة العمياء، بل يتطلّب توفير الرعاية الجسدية والنفسية، والاهتمام بكلّ ما يحقّق راحتهم ويخفّف عنهم مشاقّ الحياة. كما يُعتبر برّ الوالدين من أعظم مظاهر الإحسان التي أكّد عليها الإسلام، وذلك

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥).

من خلال النصوص الشرعية التي رفعت من شأن الوالدين وجعلت رعاية حقوقهم وبرّهم من أسمى الأعمال التي يمكن أن يقدّمها المسلم. وبرّ الوالدين لا يعني فقط تقديم المساعدة المادية أو المعنوية، بل يمتدّ ليشمل الاستماع إليهم، ومعاملتهم باللين، وتقديم كلّ ما يحتاجونه من دعم.

الإحسان إلى الوالدين ليس فقط في حدود الطاعة العمياء، بل يتطلّب توفير الرعاية الجسدية والنفسية، والاهتمام بكلّ ما يحقق راحتهم ويخفف عنهم مشاقّ الحياة

» **تربية الأبناء:** يُعد الإحسان في تربية الأبناء من الركائز التي لا غنى عنها في بناء أسرة قوية ومن ثَمَّ مجتمع قوي، فيجب على الآباء أن يكونوا قدوة حسنة في كلّ تصرفاتهم، ليس فقط من خلال توجيه أبنائهم بالكلام، بل من خلال أفعالهم التي تعكس القيم الأخلاقية والدينية، فالإحسان في التربية يعني غرس القيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية التي تُعِد الأبناء لمواجهة تحدّيات الحياة بصلابة وحكمة، وتوجيههم نحو الطريق القويم الذي يقودهم إلى النجاح في الدنيا والآخرة. يتطلّب الإحسان أيضًا تفهّم مشاعر الأبناء ودعمهم نفسيًا، وتعليمهم كيفية التعامل مع ضغوط الحياة بشكل سليم.

ثالثًا- الإحسان في العمل:

لا ينظر الإسلام إلى العمل كوسيلة لكسب الرزق فقط، بل هو عبادة إنْ صاحبَه إخلاص وإتقان، لذا يجب ألّا ينفصل الإحسان عن العمل الذي يؤدّيه المسلم أيًا كانت طبيعته أو طريقة تأديته، وكذلك حتى لو كان الشخص هو مَن يؤدّي العمل أو يؤدَّى العمل له، ومن بعض أوجه الإحسان في العمل:

» **إتقان العمل:** الإحسان في العمل هو إتقانه بأفضل صورة ممكنة، سواء كان هذا العمل كبيرًا أو صغيرًا، فعلى العامل أن يؤدّي وظيفته بإخلاص وحرص دون تقصير أو تأجيل، وذلك عملاً بتعليمات الإسلام في كلّ الجوانب، فقال رسول الله ﷺ: (إنَّ اللهَ يُحبُّ إذا عَمِلَ أحدكم عملاً أن يُتقِنه)[1]، هذا الحديث يشير إلى أهمية الإحسان في أداء العمل، مهما كان نوعه.

» **العدالة في المعاملة:** لا يشمل الإحسان تأدية العمل فقط، بل يجب أن يظهر في التعامل مع الزملاء والرؤساء والمرؤوسين، فيجب أن تكون العلاقة بين العاملين قائمة على الاحترام المتبادل، والتقدير المناسب للمجهود الذي يؤدّيه العامل لصاحبه، فقال النبي ﷺ: (أعطوا الأَجيرَ أجرَه قبل أن يَجفَّ عَرقُه)[2]، يُعدّ هذا الحديث من الأحاديث التي توضّح مبدأ العدالة الاجتماعية في الإسلام، وهو يعكس الالتزام الديني والأخلاقي تجاه العاملين، فيبرز الحديث مسؤولية صاحب العمل في تلبية حقوق الأجير بشكلٍ فوري، وهو تأكيد على أنّ تأخير الأجور يُعد خرقًا لقيم العدل والإحسان في الشريعة الإسلامية. وهذا الحديث يرتبط بنظرية العمل في الفقه الإسلامي التي تعتمد على معايير الإنصاف والرحمة في التعامل مع الأجير، ووفقًا لهذا الحديث فإنّ تحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية تشمل ليس فقط تأمين الحقوق المالية، بل أيضًا تعزيز بيئة العمل التي تضمن كرامة الإنسان واحترام جهده، وبالتالي يتجاوز الإحسان في التعامل مع الأجير الحدود المادية ليشمل توفير مناخ من التقدير والاعتراف بجهوده ودوره في بناء المجتمع.

تحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية تشمل ليس فقط تأمين الحقوق المالية، بل أيضًا تعزيز بيئة العمل التي تضمن كرامة الإنسان واحترام جهده، وبالتالي يتجاوز الإحسان في التعامل مع الأجير الحدود المادية ليشمل توفير مناخ من التقدير والاعتراف بجهوده ودوره في بناء المجتمع

رابعًا- الإحسان في العلاقات الاجتماعية:

يُعد خلق الإحسان الأساسَ المتينَ لبناء مجتمع متماسك، حيث يكون كلّ فرد في المجتمع مسؤولاً عن الآخرين، فالمظاهر والعلاقات الاجتماعية التي تقوم على الإحسان تعزِّزُ الثقة المتبادلة، وتوجدُ بيئةً من التعاون والتعاضد، ومن تلك المظاهر:

» **صلة الرحم:** وهي من أعظم صور الإحسان في العلاقات الاجتماعية، قال رسول الله ﷺ: (مَن كانَ يؤمن باللهِ واليومِ الآخر فليَصِل

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٣٨٦).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٣).

رَحمه)[1]، فيحثّ هذا الحديث على الإحسان إلى الأقارب، وعدم قطع التواصل معهم مهما بلغت الخلافات، كما ورد في الحديث الشريف أنّ صلة الرحم مرتبطة بعقيدة الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وهي دلالة على أهمية صلة الرحم في الإسلام.

» **إكرام الضيف:** الإحسان إلى الضيف من أهمّ سمات المجتمع الإسلامي، فقال رسول الله ﷺ: (مَن كانَ يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرِم ضيفه)[2]، فإكرام الضيف هو تعبير عن الكَرَم والإحسان، وهو واجب اجتماعي يحافظ على العلاقات الطيبة بين الناس، ومثله مثل صلة الرحم قد وردا في الحديث الشريف نفسه والذي يربطهما بالإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، في إشارة إلى أنّ المسلمَ سليمَ العقيدة يصل الرحم ويحسنُ إلى الجار والضيف.

خامسًا- خطوات عملية لنشر ثقافة الإحسان في المجتمع:

يبدأ نشر ثقافة الإحسان في المجتمع من التعليم والتوعية، حيث يجب أن تكون قيم الإحسان جزءًا أساسيًا من المناهج التعليمية ووسائل التربية الدينية والتوعية الأخلاقية، وذلك من أجل تربية الأجيال القادمة على هذه القيمة الإسلامية العظيمة، ومن الخطوات العملية في ذلك السياق ما يلي:

» **إدراج قيم الإحسان في المناهج التعليمية:** يجب أن تكون المناهج الدراسية حافلةً بقيم الإحسان والرحمة، وكذلك النماذجَ العملية على خلق الإحسان وجزاءه في الدنيا والترغيب في ثوابه في الآخرة، بحيث يتعلّم الأطفال والشباب أهمية هذه القيم منذ الصغر.

» **تنظيم ورش عمل ومحاضرات حول الإحسان:** من المهمّ تنظيم فعاليات توعوية تستهدف مختلف فئات المجتمع لنشر ثقافة الإحسان بين فئات المجتمع، وذلك من شأنه أن ينشر السلم والأمن في المجتمع بشكل واسع.

» **تشجيع الأعمال الخيرية والتطوّعية:** يمكن أن تلعب المبادرات الخيرية دورًا مهمًا في تعزيز ثقافة الإحسان في المجتمع، فيصبح الإحسان واقعًا بين الناس يؤدّي من خلاله القادرون دورهم في العطاء تجاه المحتاجين.

» **إنشاء منصات للتواصل الاجتماعي تروّج لقيم الإحسان:** يمكن استغلال وسائل التواصل الاجتماعي لنشر قصص النجاح التي تعكس قيم الإحسان في المجتمع.

> **يجب أن تكون قيم الإحسان جزءًا أساسيًا من المناهج التعليمية ووسائل التربية الدينية والتوعية الأخلاقية، وذلك من أجل تربية الأجيال القادمة على هذه القيمة الإسلامية العظيمة**

وأخيرًا؛

فالإحسان رتبة عالية في دين الله تعالى، كما دلّت عليه النصوص في الكتاب والسنة، «وقوله ﷺ في تفسير الإحسان: (أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه... إلخ) يشير إلى أنَّ العبد يعبد الله تعالى على هذه الصفة وهو استحضار قربه وأنّه بين يديه كأنه يراه؛ وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، كما جاء في رواية أبي هريرة ﷺ أن تخشى الله كأنك تراه، ويوجب أيضًا النصح في العبادة وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها»[3].

وهذا يرفع الإحسان فوق كونه قيمة دينية نظرية، بل هو ركيزة أساسية في بناء الحضارات المتقدمة، فغرسه في النفوس يسهم في خلق مجتمع أكثر عدلاً وتعاونًا وانضباطًا، حيث تتلاقى القيم الروحية والأخلاقية مع متطلّبات الحياة اليومية، إذا التزم الأفراد والمؤسسات بنشر وتعزيز ثقافة الإحسان المفضية إلى بلوغ الغاية في الخوف من الله وتعظيمه والرقابة الذاتية وإتقان الأعمال؛ فإنّ النتيجة ستكون مجتمعات تتمتّع بإيمان قوي وروابط اجتماعية قوية، وتفاهم متبادل، وبيئة يسودها السلام والأمن الاجتماعي. لذا يبقى الإحسان هو المفتاح نحو تحقيق إصلاحات مجتمعية جذرية تمتدّ من الأسرة إلى الدولة، مما يجعل من هذه القيمة ضرورة لا غنى عنها في أيّ مسعى لتحقيق النهضة التي سعى الإسلام لتطبيقها في المجتمع المسلم.

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٨)، ومسلم (٤٧).
(٣) جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الثاني، ص١٠٣.

قراءة في كتاب: "خارطة الدم" لوليد الهويريني

أ. ياسمين الحايك (*)

يكشف الكتاب كيف استخدمت أمريكا وحلفاؤها استراتيجيات معقّدة لإعادة رسم خريطة العالم الإسلامي، وكيف تمّ تنفيذ مشاريع مثل «خارطة حدود الدم» و«الفوضى الخلّاقة» لإضعاف الدول الإسلامية، كما يُبرز دور الإعلام والعقوبات الاقتصادية والمنظمات الدولية في فرض السيطرة الغربية، مؤكدًا أنّ الحلّ يكمن في الوعي والوحدة والتنمية المستقلّة لمواجهة مخطّطات التفكيك والهيمنة، وزيادة عمل الدعاة والمفكّرين في نشر الفكر الإسلامي.

لمحة عن الكتاب:

يتناول الكتاب الجهود الغربية في تقسيم البلاد الإسلامية بما يتوافق مع مصالحها، مستعرضًا مشاريع مثل مشروع سايكس بيكو ومشروع الشرق الأوسط الكبير، كما يناقش دور القوى الإقليمية التي تحرّكت لتحقيق أطماعها القومية في ظلّ هذه المخططات، مؤكّدًا على أهمية الوعي بهذه المشاريع الغربية كخطوة أولى لمواجهتها.

صدر الكتاب عن مركز «تكوين» في عام ٢٠١٤م، ويحتوي على ٢١٦ صفحة.

لمحة عن المؤلف:

وُلد الدكتور وليد بن عبد الله الهويريني في المملكة العربية السعودية، وهو كاتب وباحث متخصّص في الفكر السياسي والاجتماعي، حصل على درجة الدكتوراه في مجال تخصّصه، تتميز كتاباته بالتحليل العميق والرؤية النقدية، معتمدًا على منهجية تجمع بين التاريخ والسياسة لفهم التغيرات في العالم الإسلامي.

من مؤلفاته الأخرى:

» «عصر الإسلاميين الجدد»، يقدّم رؤية لأبعاد المعركة الفكرية والسياسية في حقبة الثورات العربية.

(*) بكالوريوس إرشاد وتوجيه نفسي، ناشطة وباحثة بقضايا المرأة.

» «تحوّلات الإسلاميين من لهيب سبتمبر إلى ربيع الثورات»، يستعرض فيه التحولات التي شهدتها الحركات الإسلامية بين أحداث ١١ سبتمبر والثورات العربية.

بين ثنايا الكتاب:

الفصل الأول/ أرض الإسلام من الوحدة إلى التقسيم:

يتناول فيه المؤلف الخلفيةَ التاريخية والاستراتيجية لمخططات تقسيم العالم الإسلامي، مستعرضًا الدوافع والأحداث التي قادت القوى الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة إلى التدخّل في شؤون المنطقة.

أبرز النقاط في هذا الفصل:

١. الجذور التاريخية للمخططات الغربية:

يستعرض هذا الفصل المراحل المختلفة التي مرّت بها المنطقة الإسلامية في ظلّ الاستعمار والهيمنة الغربية بعد سقوط الدولة العثمانية التي تعدّ آخر دولة حفظت بيضة المسلمين، حيث بدأ الاستعمار الغربي عندما احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠م ثم احتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢م.

كما يسلّط الضوء على اتفاقية سايكس بيكو ودورها في تقسيم الشرق الأوسط بين فرنسا وبريطانيا، ويذكر أنّ الحدث العظيم الذي يعتبر إعلانًا مروّعًا لسقوط العالم الإسلامي هو إعلان إلغاء الخلافة العثمانية وإعلان دولة تركيا الحديثة.

وفي منتصف القرن العشرين خرج العالم العربي من الاستعمار العسكري وبرز المشروع القومي الناصري وانضم الشباب لهذا المشروع، لكنّ الإسلاميين كانوا يعيشون محنة القمع والتنكيل الأمني من الحكومات، إضافة لشعورهم بالاغتراب المجتمعي، إلا أنّ هذا المشروع تلقّى طعنة عندما هُزم العرب من دولة الصهاينة في يونيو ١٩٦٧م ثم مات المشروع بعد غزو العراق للكويت ودخول العالم العربي عصر الهيمنة الأمريكية.

٢. الصفقة الخاسرة:

يرى المؤلف أنّ شرارة الصحوة العربية انطلقت عقائديًا وثقافيًا لإيجاد نموذج إسلامي يحاكي النموذج الذي كان في العهد النبوي والراشدين، وهنا قام الغرب بالاتفاق مع النظم العربية الاستبدادية لقمعها بكلّ الوسائل في مقابل دعمها سياسيًا وعسكريًا وأمنيًا، وقد حقّق هذا الاتفاق مصالح آنية للطرفين ولكنّها ليست بعيدة المدى، فقد أدركت الشعوب العربية أنّ الغرب هو العدو الأكبر وهو الداعم للأنظمة العربية القمعية، وهذه النظم من جهة أخرى -وبسبب الدعم الغربي- استكانت لأوضاعها وتنازلت عن قضايا الأمة الكبرى فغرقت البلاد بالفقر والمرض والجريمة.

٣. تشكّل النظام الدولي الجديد:

في هذا المبحث يشرح المؤلف كيف أنّ تشكّل هيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية كان له دور كبير في ترسيخ الانقسام بين الدول، ومن نتائج إنشاء هيئة الأمم المتحدة: اعتبار الدولة الحديثة بحدودها الجغرافية هي شرط الاعتراف الدولي بأيّ كيان سياسي وقبول عضويته في النظام الدولي. ودول المركز تمتلك أربع أدوات تسيطر فيها على الدول الأطراف وهي:

أ. القوة العسكرية «السلاح»:

يرى المؤلف أنّ الدول المركز هي التي تحتكر السلاح تصنيعًا وتسويقًا، منحًا ومنعًا، أمّا دول الأطراف فلا يُسمح أن تكون لها صناعات عسكرية مستقلة، ولذلك فقد دُمّر المفاعل النووي العراقي في الثمانينيات، واغتيل مئات العلماء العراقيين في المجالات العلمية بعد الغزو الأمريكي عام ٢٠٠٣م.

ب. الطاقة والموارد:

يذكر المؤلف أنّ دول المركز تحرص على احتكار الطاقة والموارد الطبيعية كالنفط والغاز والقمح ومنابع المياه؛ حتى تسدّ حاجتها أولاً، ولكي تضع يدها على تلك الموارد وتُبقي دول العالم تحت سيطرتها، ولذا تُمنع أيّ دولة أن تستقل بتحقيق الحدّ الأدنى من أمنها الغذائي كزراعة القمح مثلاً.

ج. الشرعية الدولية: «هيئة الأمم المتحدة»، وقد تقدّم الحديث عنها.

د. العولمة (الثقافة والتعليم والإعلام):

يؤكد المؤلف أنّ الإعلام هو أهم أدوات الهيمنة على ثقافة الشعوب وصياغة مفاهيمها واتجاهاتها وأفكارها، حيث إنّ دول المركز تحرص على توظيف الإعلام في كافّة المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، مما يجعل شعوب دول الأطراف شعوبًا مستعمَرة ثقافيًا، وعندها شعور بالهزيمة

الحضارية؛ فتنظر للنموذج الغربي بقيمه وثقافته على أنّه النموذج المعياري للحضارة والرقي والتقدّم.

٤. فخّ التراجع الأمريكي:

في هذه الفقرة يناقش المؤلف فكرة أنّ التراجع الأمريكي في المنطقة الإسلامية قد يبدو ظاهريًا وكأنّه هزيمة أو انسحاب، لكنه في الحقيقة قد يكون جزءًا من استراتيجية أعمق، تقوم على إعادة التموضع واستخدام أدوات غير مباشرة للحفاظ على النفوذ.

أبرز الأفكار في هذا المبحث:

أ. الانسحاب كخدعة استراتيجية:

يشير المؤلف إلى أنّ الولايات المتحدة لا تنسحب من مناطق الصراع دون تحقيق أهدافها، بل تعيد تموضعها بطرق جديدة. مثال ذلك: الانسحاب الأمريكي من العراق لم يكن تخلّيًا عن النفوذ، بل تمّ استبدال أدوات أخرى بالاحتلال المباشر مثل دعم الميليشيات المحلية والتدخل غير المباشر.

ب. استخدام الوكلاء بدلاً من التدخل المباشر:

فبعدما أصبحت الحروب المباشرة مكلفة وغير شعبية داخل الولايات المتحدة، بدأ الاعتماد على الحلفاء الإقليميين والجماعات المسلحة لتحقيق الأهداف الأمريكية. مثال ذلك: دور بعض الدول في تمويل وتسليح الفصائل المسلحة في سوريا والعراق.

ج. الاقتصاد والحروب غير التقليدية:

لم تعد الحروب تعتمد فقط على الجيوش، بل أصبحت الأدوات الاقتصادية (مثل العقوبات) السياسية والإعلامية تلعب دورًا أكبر، وأمريكا تستخدم العقوبات الاقتصادية لإضعاف الدول المستهدفة، كما فعلت مع إيران وسوريا وفنزويلا.

د. إيجاد حالة عدم الاستقرار لضمان استمرار النفوذ:

يشير المؤلف إلى أنّ التراجع الأمريكي لا يعني انتهاء التأثير، بل يتم استبداله بسياسات تُبقي الدول في حالة ضعف وانقسام. مثال ذلك: حال أفغانستان بعد انسحاب القوات الأمريكية.

> **الإعلام هو أهم أدوات الهيمنة على ثقافة الشعوب وصياغة مفاهيمها واتجاهاتها وأفكارها، حيث إنّ دول المركز تحرص على توظيف الإعلام في كافّة المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، مما يجعل شعوب دول الأطراف شعوبًا مستعمَرة ثقافيًا، وعندها شعور بالهزيمة الحضارية؛ فتنظر للنموذج الغربي بقيمه وثقافته على أنّه النموذج المعياري للحضارة والرقي والتقدّم**

٥. مركزية الحدث السبتمبري:

تناقش هذه الفقرة كيف أنّ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م لم تكن مجرّد هجوم إرهابي عابر، بل كانت نقطة تحوّل استراتيجية استغلتها الولايات المتحدة لإعادة تشكيل سياساتها تجاه العالم الإسلامي، وإطلاق مشروع جديد للهيمنة تحت ذريعة «الحرب على الإرهاب».

أبرز الأفكار في هذه الفقرة:

أ. ذريعة للتدخل العسكري:

وفّرت هجمات ١١ سبتمبر مبررًا مثاليًا للولايات المتحدة لغزو أفغانستان (٢٠٠١م) والعراق (٢٠٠٣م) بحجّة محاربة الإرهاب، رغم أنّ الأدلة على تورط العراق لم تكن موجودة.

كما تمّ استغلال الحادثة لشرعنة التدخلات العسكرية في الشرق الأوسط والتوسع في بناء القواعد العسكرية.

ب. فرض سياسات أمنية مشددة عالميًا:

تحولت مكافحة الإرهاب إلى أداة للضغط على الدول الإسلامية، مما أدّى إلى تقويض سيادتها، من خلال فرض سياسات أمنية أمريكية.

كما تمّ تبرير انتهاك حقوق الإنسان (مثل معتقل غوانتانامو، والتعذيب في السجون السرية) بذريعة «حماية الأمن القومي».

ج. إعادة تشكيل خريطة العالم الإسلامي وفقًا للمصالح الأمريكية:

فقد تمّ إدخال دول المنطقة في دوامة الحروب الأهلية والصراعات الطائفية التي ساعدت على إضعافها.

د. التوظيف الإعلامي والخطاب المعادي للإسلام:

استخدمت الإدارة الأمريكية والإعلام الغربي خطابًا يربط الإسلام بالإرهاب، مما أسهم في إيجاد موجة عداء ضد المسلمين عالميًا، وتمّ استغلال ذلك للضغط على الدول الإسلامية للقيام بإصلاحات سياسية واقتصادية تتماشى مع الرؤية الأمريكية.

الفصل الثاني/ مخطط التقسيم من التنظير لأرض الواقع:

يوضّح هذا الفصل كيف أنّ الاستعمار لم ينتهِ بانسحاب الجيوش الأجنبية، بل استمر من خلال سياسات الهيمنة الاقتصادية والثقافية، ويناقش كيف تمّ رسم حدود الدول الإسلامية بطريقة تضمن استمرار النزاعات الداخلية، ويُبرز دور المؤسسات المالية الدولية (كصندوق النقد الدولي) في إضعاف الاقتصادات الإسلامية وإبقاء الدول تحت السيطرة، فما يحدث في الشرق الأوسط ليس مجرّد أحداث عشوائية، بل هو جزء من استراتيجية طويلة المدى تهدف إلى تفتيت الدول الإسلامية وفقًا لمصالح الغرب.

١. مشروع الشرق الأوسط الكبير الجديد:

تناقش هذه الفقرة كيف أنّ «مشروع الشرق الأوسط الكبير» لم يكن مجرّد فكرة إصلاحية كما روّج له، بل هو مخطط استراتيجي لإعادة تشكيل العالم الإسلامي وتفكيكه وفقًا للمصالح الأمريكية والغربية، مستغلاً أدوات سياسية واقتصادية وعسكرية لتحقيق أهداف الهيمنة والتقسيم، مع تحييد الهوية الدينية والثقافية في تعامل الدول العربية مع الصهاينة، وهذا يتطلب ثورة في المفاهيم كما قال بيريز.

أبرز الأفكار في هذه الفقرة:

أ. الهدف الحقيقي للمشروع:

ذوبان المنطقة بهمومها وقضاياها في براح شاسع جغرافيًا، متنوّع ومتفاوت في هويته الثقافية والسياسية والاجتماعية، بحيث تتوه هوية العرب وقضاياهم وسط هذا الخضمّ الهائل الاتساع.

ب.أدوات التنفيذ:

- التدخّل العسكري: تم استخدام القوة العسكرية المباشرة كما حدث في العراق وأفغانستان لإضعاف الدول وخلق فراغات سلطة، وكذلك دعم الجماعات المتطرّفة لإثارة النزاعات الداخلية.
- الفوضى الخلاقة: بدعم الثورات والحركات الاحتجاجية كوسيلة لإسقاط الأنظمة دون تقديم بديل مستقر، مما يؤدي إلى حالة عدم استقرار دائم.
- الاقتصاد كأداة ضغط: بفرض العقوبات الاقتصادية على الدول التي ترفض الانصياع للمخططات الغربية مثل إيران وسوريا.

ج. التقسيم وإعادة رسم الحدود:

يهدف المشروع إلى تقسيم الدول الكبرى إلى كيانات أصغر لضمان عدم وجود قوة إسلامية مركزية قادرة على مواجهة النفوذ الغربي، ومن الأمثلة على ذلك: الخرائط التي تظهر تقسيم العراق إلى ثلاث دول (سنّية، شيعية، كردية)، وسوريا إلى عدة مناطق عرقية وطائفية.

د. دور إسرائيل في المشروع:

يؤكد المؤلف أنّ أحد الأهداف غير المعلنة للمشروع هو تعزيز مكانة إسرائيل عبر إضعاف الدول المحيطة بها، ويتمّ ذلك عبر إيجاد صراعات داخلية تمنع الدول العربية والإسلامية من تشكيل تهديد حقيقي لإسرائيل.

> **«مشروع الشرق الأوسط الكبير» لم يكن مجرّد فكرة إصلاحية كما تمّ الترويج له، بل هو مخطط استراتيجي لإعادة تشكيل العالم الإسلامي وتفكيكه وفقًا للمصالح الأمريكية والغربية، مستغلاً أدوات سياسية واقتصادية وعسكرية لتحقيق أهداف الهيمنة والتقسيم، مع تحييد الهوية الدينية والثقافية في تعامل الدول العربية مع الصهاينة، وهذا يتطلب ثورة في المفاهيم كما قال بيريز**

٢. خارطة حدود الدم:

يقدم هذا المبحث تحليلاً لمفهوم «حدود الدم»، الذي يعدّ من أخطر المشاريع التي طُرحت لإعادة تشكيل الشرق الأوسط، حيث يستند إلى تقسيم الدول الإسلامية إلى كيانات أصغر على أسس

طائفية وعرقية؛ مما يؤدي إلى نزاعات مستمرة تُضعف أي إمكانية لنهوض العالم الإسلامي، وتضمن بقاء المنطقة ضعيفة وممزقة، مما يسهل السيطرة عليها واستغلال مواردها.

أبرز الأفكار في هذا المبحث:

أ. مفهوم «حدود الدم» وأصله:

يشير المؤلف إلى أنّ مصطلح «حدود الدم» يرتبط بمقالة نشرتها مجلة القوات المسلحة الأمريكية عام ٢٠٠٦م للكاتب «رالف بيترز»، حيث عرض فيها خريطة جديدة للشرق الأوسط تعكس رؤية أمريكية لتقسيم الدول الإسلامية وفقًا للانتماءات الطائفية والإثنية.

تؤكّد هذه الخطة أنّ الحدود الحالية للشرق الأوسط لا تعكس «الواقع الديموغرافي»، لذا يجب إعادة رسمها بشكل يناسب المصالح الغربية.

ب. أهداف المشروع:

- خلق كيانات صغيرة متناحرة لمنع ظهور أيّ قوة إقليمية موحدة.
- استغلال التوترات العرقية والطائفية كأداة لتفكيك الدول، مثل استغلال الخلافات بين السنّة والشيعة، والعرب والأكراد، والمسلمين والمسيحيين.
- تعزيز الأمن الإسرائيلي عبر إضعاف الدول المجاورة لها.

ج. مخطط التقسيم وفق «خارطة حدود الدم»:

- العراق: تقسيمه إلى ثلاث دول (شيعية في الجنوب، سنّية في الوسط، كردية في الشمال).
- سوريا: تفتيتها إلى عدة مناطق على أسس طائفية (دولة علوية، دولة سنّية، دولة كردية).
- السعودية: تقسيمها إلى عدة مناطق، تشمل دولة مستقلة للأقلية الشيعية في الشرق حيث تتركز الموارد النفطية.
- إيران وتركيا: تحجيم نفوذهما عبر دعم الحركات الانفصالية، مثل الأكراد والبلوش.
- السودان وليبيا: استكمال مشاريع التقسيم، كما حدث في انفصال جنوب السودان عام ٢٠١١م.

د. الأدوات المستخدمة لتنفيذ المخطط:

- أولاً- تفجير المكونات الداخلية: من خلال تفعيل شعور الأقليات بالتهميش لتثويرها، والهدف الاستراتيجي هو تفتيت الدولة العربية المعاصرة، ويذكر المؤلف أنّه كثيرًا ما يتم توظيف الاقتتال الداخلي نحو فرز المكونات المتنوعة المتداخلة جغرافيًا، وهذا يتجلى في الحالة السورية حيث ساهمت الثورة المسلحة في أن يأوي كل مواطن إلى طائفته مما أحدث تغيرًا في الخريطة الديمغرافية.
- ثانيًا- توظيف الجماعات القتالية الجهادية: فكثير من هذه الجماعات ترى أنّ صناعة الفوضى الأمنية هي المدخلَ المناسب للتغيير في العالم العربي والمشروع الجهادي، كما أنّها تعتقد أنّها قادرة على إقامة إمارة تحكم بالشريعة على أيّ بقعة من الأرض، ومن ثمَّ تقوم هذه الإمارة بإعلان الحرب على النظام الدولي ابتداء بالغرب ومرورًا بإيران والشيعة، وانتهاءً بالنظم العربية.
- ثالثًا- إثارة النزاعات الداخلية: بدعم الحروب الأهلية، كما حدث في العراق وسوريا وليبيا.
- رابعًا- التدخلات العسكرية المباشرة: كما حدث في الغزو الأمريكي للعراق وأفغانستان.
- خامسًا- الدعاية الإعلامية: بالترويج لفكرة أنّ التقسيم هو الحلّ الوحيد لتحقيق الاستقرار.

كل هذه الأدوات تؤدّي في النهاية إلى: حالة من الفوضى المستمرة فتتحوّل النزاعات الداخلية إلى صراعات طويلة الأمد، وتُفقد الدول القدرة على أن تصبح قوة إقليمية مما يبقي المنطقة تحت السيطرة الغربية، وتتيح للقوى الكبرى (أمريكا وإسرائيل) التحكّم في الموارد الاستراتيجية مثل النفط والممرات البحرية.

> **مفهوم «حدود الدم» يعدّ من أخطر المشاريع التي طُرحت لإعادة تشكيل الشرق الأوسط، حيث يستند إلى تقسيم الدول الإسلامية إلى كيانات أصغر على أسس طائفية وعرقية؛ مما يؤدي إلى نزاعات مستمرة تُضعف أي إمكانية لنهوض العالم الإسلامي، وتضمن بقاء المنطقة ضعيفة وممزقة، مما يسهل السيطرة عليها واستغلال مواردها**

٣. هل ستقبل الشعوب العربية خيار التقسيم؟

يذكر المؤلف أنّ البعض يستبعد وقوع التقسيم مستندين على تصوّرهم للحالة الظاهرية لواقع الشعوب العربية، ولكنّ المؤلف يرى أن هذا المنطق غير دقيق لأمرين:

الأول: أنّه لا يوجد بلد عربي يخلو من وجود فجوات بين مكوّناته، وبعض المكونات أخذت نصيبًا كبيرًا من الثروة والسلطة في حين حُرمت مكوّنات أخرى من ذلك، وهذه فرصة للدخول في هذا المشروع.

الثاني: أنّه في بداية الأحداث والثورات يرفض الكثيرون التقسيم ويحاولون الحفاظ على الوحدة، على الرغم من دفع ثمن كبير من مال وعرض وأرض، ولكن بعد زيادة هذه الأثمان لدرجة يصعب تحملها قد يصبح التقسيم مطلبًا.

الفصل الثالث- أهمية الوعي وسبل مقاومة مخطط التقسيم:

يرى المؤلف أنّه من الضروري بناء تصوّر دقيق للواقع قبل اتخاذ أي موقف صحيح، ويذكر أنّ حدث الثورات العربية كان ضخمًا أربك النخب الإسلامية والليبرالية والقومية؛ ممّا أدّى لحدوث اصطدام في الآراء بين هذه النخب، ويذكر أهم الأسباب التي أنتجت هذه الحالة:

١. توصيف الواقع بناء على قراءة سابقة انتهت صلاحيتها:

فتحليل النخب الإسلامية للأحداث ظلّ أسيرًا للموقف الغربي القديم الذي يقوم على دعم النُظم الاستبدادية في مقابل قهر الشعوب وقمع الإسلاميين وتأمين مصالحه في المنطقة، على الرغم من أنّ الغرب بدأ في تغيير مواقفه وإحلال معادلات جديدة لتأمين مصالحه في المنطقة، وهذا التغيير لم يأت فجأة، بل مرّ بخطة خضعت للمراجعة والمتابعة على مرّ سنوات أو عقود.

٢. التطرف في التعامل مع نظرية المؤامرة:

من الناس مَن يعتقد أنّ كلّ التحوّلات التي نعيشها يتحكم بها الغرب، وبالتالي فلا أمل في التغيير، بينما يسخر البعض الآخر من هذه النظرية ويرون أنّ الغرب لا علاقة له بما يعانيه المسلمون من تخلف واستبداد.

٣. مشاركة الإسلاميين في المسار السياسي:

في حقبة ما -قبل الثورات- لم يكن لدى الإسلاميين تواجد حقيقي في العمل السياسي مما جعل دورهم في التحليل والنقد متخففًا من استحقاقات الصراع السياسي الذي تفرضه حسابات أي حزب يخوض مسار العمل الديمقراطي، كما أنّ لديهم خلافات وإشكالات حقيقية مع بعض مكوّنات الديمقراطية الغربية في مجال التشريع والحريات الليبرالية، بالإضافة إلى التركة السياسية الثقيلة التي تركتها حكومات ما قبل الثورات التي كانت ترتبط بعلاقات استراتيجية مع الغرب والعدو الصهيوني، إضافة إلى محاولتهم الإصلاح المتدرّج من الداخل ومحاولة التصالح مع مؤسسات الدولة العميقة؛ وهذا كله أدى إلى عدم قدرتهم على صياغة خطاب سياسي إعلامي متماسك؛ الأمر الذي تسبب في الثورة المضادة لإسقاطهم.

> **يرى المؤلف أنّه من الضروري بناء تصوّر دقيق للواقع قبل اتخاذ أي موقف صحيح، ويذكر أنّ حدث الثورات العربية كان ضخمًا أربك النخب الإسلامية والليبرالية والقومية؛ ممّا أدّى لحدوث اصطدام في الآراء بين هذه النخب**

دور النظم العربية في مقاومة مخطط التقسيم:

يؤكد المؤلف أنّه عند حدوث أيّ أزمة لأيّ مجتمع فإنّ حجم المسؤولية عن الأزمة يتم توزيع أوزانها بحسب ما تمتلكه كل جهة من سلطة وصلاحيات.

والشعوب هي الضمانة الوحيدة لاستقرار الدول، والمجتمعات العربية تحتاج لخطوات إصلاحية لتقوية جبهتها الداخلية ونسيجها

الوطني لتلافي التصدّع في مكوناتها والتهديدات الخارجية التي تطرق أبوابها.

كما أنّ مشاريع الاتحاد كمشروع الاتحاد الكونفدرالي في الخليج سيكون مهمًا جدًا في ظلّ التحدّيات التي تستهدف المنطقة، وسيغلق -لو تحقّق- فجوات مهمّة في أمن دول الخليج.

دور النخب والشعوب في مقاومة مخطط التقسيم:

يشرح المؤلف كيف أنّ الشعوب العربية تعاني من الشعور المفرط بالوعي والتحرر الذي منعهم من تجاوز مرحلة الصدمة التي أعقبتها فرحة غامرة لم تنجح في التعاطي مع حجم التحديات السياسية والفكرية والاجتماعية لحقبة الثورات العربية، ويرى أنّنا نحتاج اليوم أن نقف موقفًا وسطيًا معتدلاً بين رؤية مغرقة في الأحلام ظنّت أنّ الشعوب العربية قلبت صفحة التخلف والاستبداد خلال أشهر قليلة، والرؤية المعاكسة المتشائمة من تداعيات الثورات العربية التي ظنّت أنّه لا شيء تغير في مسيرة هذه الشعوب، ويذكر أنّ زلزال الثورات العربية هو منعطف حادّ جاء كحلقة من التدافع التاريخي بين الحق والباطل، وأنّ حجم التربص الاستعماري الغربي والكيد الصفوي يجعلان من توحّد الأمة حول الأصول العامة مهمًّا للغاية.

تمتين الجبهة الداخلية:

أنتج غياب العدالة الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية وجود فجوات اقتصادية واجتماعية بين شرائح المجتمع؛ مما أثّر سلبًا على تماسك البنية المجتمعية، إضافة إلى وجود العنصرية والطائفية والمناطقية فيها، ومما ساعد على خروج هذه المشكلات هو مناخ الثورات العربية وانفتاح المجتمعات على الإعلام، لذلك يرى المؤلف أنّه من الضروري أن يعمل المفكّرون على تصحيح هذه المشاكل، وبناء مجتمع يُعلي من شرط الكفاءة على كل الامتيازات الفئوية التي تفرزها البيئات الفاسدة.

> **أنتج غياب العدالة الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية وجود فجوات اقتصادية واجتماعية بين شرائح المجتمع؛ مما أثّر سلبًا على تماسك البنية المجتمعية**

تقويم ثنائية الثائرين:

يشرح المؤلف هذا المصطلح بأنّ تزامن تراكم ملفات الاستبداد مع اندلاع الثورات العربية أوجد ما يسمى ثنائية الثائرين أو استبداد الثائرين، حيث أصبح بعض الثوار الطامحين للإصلاح لا يرضى من المخالفين له بإدانة الظلم فحسب، بل يجب أن توافقه في مسلكه في تغيير هذا الظلم، حتى لو كانوا من العلماء والمفكرين، ويرى المؤلف أنّنا بحاجة ماسّة لتجنّب تشطير جهود دعاة الإصلاح والتغيير، وهذا يحتاج صبرًا وعدلاً من المصلحين بألا يحتكروا سبل التغيير في مشروعهم.

الإعداد الإيماني ومضاعفة الجهد الدعوي:

يرى المؤلف أن المجتمعات العربية لا تزال توجد فيها فراغات في المجالات الفكرية والتربوية والإيمانية، وتحتاج لانصراف ثلّة من الدعاة لبناء المجتمع وتربيته على القيم الإسلامية وتصحيح ممارساته الخاطئة.

مجابهة الخطر الإيراني الصفوي بما يتناسب مع ظرفه الزماني والمكاني:

يذكر المؤلف أنّ التعويل الغربي على الورقة الطائفية جعل من المشكلة تتوزع في معظم المجتمعات العربية، فقد نجح النظام الإيراني في زرع تنظيمات حركية داخل الطائفة الشيعية الحركية، وقوتها تختلف من بلد لآخر، ففي لبنان واليمن هناك توظيف للقوة العسكرية، أمّا في البحرين فقد تمّ توظيف المظاهرات السلمية لإسقاط البلد في حضن إيران، وعلى أهل السنّة أن يتعاملوا بحكمة لصدّ هذا الخطر بما يتناسب مع المكان الجغرافي له وأسلحته المستخدمة فيه.

دعم الجهاد الفلسطيني ضدّ الصهاينة:

يرى المؤلف أنّه من تداعيات الثورات العربية انكفاء كل شعب على همومه القطرية وتواري القضية الفلسطينية في سلم اهتمامات الشعوب الإسلامية لمرتبة متأخرة، في حين أنّ الجهاد الفلسطيني يتميّز بثلاث خصائص هي: قدسية القضية، والإجماع الشعبي على مشروعية هذا الجهاد، وأهمية دولة الاحتلال الاستثنائية للغرب.

> يرى المؤلف أن المجتمعات العربية لا تزال توجد فيها فراغات في المجالات الفكرية والتربوية والإيمانية، وتحتاج لانصراف ثلّة من الدعاة لبناء المجتمع وتربيته على القيم الإسلامية وتصحيح ممارساته الخاطئة

الورقة الأخيرة: أحلامنا الخالدة التي لن تموت:

يذكر المؤلف ثلاث فجوات في منظومة الوعي التي تهدّد جيل الشباب:

الفجوة الأولى- الانقطاع التاريخي:

فالأجيال الحالية ولدت في ظلّ هيمنة الحضارة الغربية على العالم، وهي تتحكّم في مسار حياة الشباب عبر قاطرتين، الأولى: إفرازات الدولة الحديثة المعاصرة التي تصوغ حياة الأجيال اقتصاديًا وثقافيًا وسياسيًا، حيث إنّ معظم الدول الإسلامية بنيت أسسها وفق مفاهيم علمانية؛ مما أوجد تشوهات عميقة في أفكار ومفاهيم قطاعات شعبية غير قليلة. والثانية: الهيمنة الغربية الاستعمارية، فقد تم احتلال شريحة من عقول الشباب العرب الذين باتوا يعانون من الاستعمار الثقافي وهو أصعب من الاستعمار العسكري المباشر، فأصيبت ذاكرتهم بفجوة انقطاع في فهم تاريخ الأمة وهويتها، والقراءة الفاحصة للحظة سقوط الأمة في أسر الحضارة الغربية.

الفجوة الثانية- التعجل التغييري:

يرى المؤلف أنّ من الأسباب التي أدّت لفشل العديد من التجارب الدعوية والجهادية والسياسة في تحقيق أهدافها هو التعجل التغييري، ومعناه: محاولة الجماعة تحقيق أهداف طموحة لا تمتلك الأدوات الكافية لترجمتها لواقع، ويرى أنّ تفادي فجوة التعجل تبنى على ركيزتين: الأولى: الفهم والاستيعاب العميق القائم على دراسات علمية متخصصة في كافّة المجالات بحجم إمكانات أعداء مشروع الأمة الإسلامية. والثانية: معرفة حجم القدرة على تمدّد المشروع الإسلامي في الفضاءات التي تنشأ عن تدافع القوى المختلفة وحراكها السياسي والجهادي.

الفجوة الثالثة- الغرق المرحلي:

على المصلحين -كما يرى المؤلف- التدرّج في الإصلاح، وخاصة في الميادين الجهادية والسياسية، لكنّ الاستمرار بهذا التدرّج يفضي إلى التعوّد عليه والغرق في تفاصيله وبحث طرق نشره، مما يغرق الإنسان في دائرته فيفقد القدرة على التفكير خارجه، ويتحوّل العمل المرحلي إلى محطّة نهائية، فينجح الخصوم في جرّ المصلحين للتعايش مع الأوضاع الفاسدة، وعلى علماء الأمة ردم هذه الفجوة من خلال نشر المفاهيم الشرعية لدى الجماهير بعيدًا عن مقتضيات الصراع السياسي.

في نهاية الكتاب يبيّن المؤلف أنّه من خلال إسهابه في الحديث عن مخططات الغرب وشواهدها أراد إلقاء الضوء على جانب مغيّب في الإعلام بسبب أجواء الصراع التي عاشتها الشعوب خلال الثورات العربية، ويقول المؤلف: إنّ الغرب يخطط كثيرًا فينجح حينًا ويفشل حينًا، وكم أفشلت الشعوب والنخب مخططات استعمارية أُنفق عليها ملايين الدولارات، فهذه الشعوب تحلم بغدٍ مشرق يزخم بقيم الحرية والعدل تحت ظلال أعظم شريعة عرفتها البشرية جمعاء.

> على المصلحين التدرّج في الإصلاح، وخاصة في الميادين الجهادية والسياسية، لكنّ الاستمرار بهذا التدرّج يفضي إلى التعوّد عليه والغرق في تفاصيله وبحث طرق نشره، مما يغرق الإنسان في دائرته فيفقد القدرة على التفكير خارجه، ويتحوّل العمل المرحلي إلى محطّة نهائية، فينجح الخصوم في جرّ المصلحين للتعايش مع الأوضاع الفاسدة، وعلى علماء الأمة ردم هذه الفجوة من خلال نشر المفاهيم الشرعية لدى الجماهير بعيدًا عن مقتضيات الصراع السياسي

بداية الرَّحيل

فاطمة الدرويش

لم أكنْ أعلم أنَّ أوراق الشجر الجافّة تتساقط علىٰ الأرض الخَضراء، وكيف لها أن تكون خضراء؟! والأوراق جافة!

لم أكنْ أعلم أنَّها مجبرة على هذا السقوط، الجو بارد وثمة أصوات تأتي من بعيد تنادي لكن لم أسمع جيدًا، نافذة صغيرة خرج منها النور، لعلنا وصَلنا لمكان يترجم ما حال كل هذا..

أرضٌ خضراء؟ نعم وطني، أمَّا عن الأوراق فهم شهداء وطني، والبرد.. كأنهُ حال قلوبنا، والصوت صوت أمي وصوت أبي وأخي وأطفالنا تنادينا كلها، نعم لقد سمعتُ النداء وصرخاته التي تقرع القلوب: أينَ من ذهبوا، وإلى أين رحلوا؟

كادَ الصوت أن يكون كصوت حَمَامة مذبوحة أوشكت على الموت، وهل للحمامة عِند موتها صوت؟! حتى أصواتهم ماتت من الألم.

لا أمل للعودةِ ولا أملَ أنْ يأتي من ذهبَ ومن رحلَ عن الدنيا ولعلَّ من بَعدِ هذه الأوراق المتساقطة تنبت أشجار باسقة تعطي أرضنا الثبات والشموخ.

والنافذة تمثل الصدع بالحَق وقول الحَقيقة، وما أجدر أن نَأتي به ولا نقفَ متفرجين من بعيد فَسِلاحنا الأهم هو الكَلمة.

بداية رحيل الحزن أتت لننهض مِن جَديد

طريق العِلم

رغداء الطباع

ها هو هذا الجمال الساحر قد أنار الدنيا بنعمائه، فسمت بهذا النور آفاق الدنيا.. فلم يترك زاوية تحيا في طريقه كادت أو أوشكت أن تنغمس في سراب الضياع إلا أضاءها.

ذلك هو السبيل الذي يحفه النور من كل جانب.. تترامى على حاشيته حصباء اللؤلؤ والمرجان التي تلمع وكأنها الثريا في ساحات السعادة.

ولكنك تعجب من هذا الطريق رغم جماله الباهر... فهو لا يسمح لأي أحد أن يحث خطاه فيه! فهو طريق عظيم لا يرضى أن يسلكه إلا العظماء؛ فلا ينعم فيه إلا الفطن، ولا ينهل من خيراته إلا الحاذق، وأما مَن سواهما فيرتمي على حافة الطريق بعيدًا حتى تأخذه الرياح العاتية إلى اليابس والهشيم!!

ولكن هذا الطريق لا يدع الماشي بين زواياه وعلى حاشيته حتى يستكين ويضعف أمام عظمته وجليل قدره!! وتأتي لحظة.. فتتبعثر الأمنيات وتتلاشى الأحلام حتى يشعر كأن بارقة أمل قد لمعت بين ثناياه!!

فأخذ بأمله ثم سار واصطحب معه همةً تناطح السحاب.. يسرع حثيثًا حاملاً زاده يفهم ويقرأ ويدوّن.. وهو يصبر ويكابد.. والعزيمة والإصرار تملآن قلبه حتى علا به الطريق إلى قمته إلى سحر الجمال المتألق..

جبر الخواطر

تسنيم خليل

جبر الخواطر من الأخلاق العظيمة التي تدل على علو النفس ونقاوة القلب وسلامة الصدر، ذلك الخلق الجميل الرفيع الذي يبعث في النفوس الشعور بالأمان والطمأنينة..

فقد يكون الجبر بكلمة أو بلمسة حانية أو بموقف صغير، وقد يحصل من خلاله الأجر العظيم من الله.. فربما تجبر خاطرًا يحبه الله فيحبك الله بسببه..

فهو من العبادات الخفيفة اللطيفة المؤثرة في المجتمع، فعلينا ألا نستخف بها ولا نستصغرها.

قال الإمام سفيان الثوري: (ما رأيت عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه مثل جبر خاطر أخيه المسلم)، ومن سار بين الناس جابرًا للخواطر أدركته عناية الله في جوف المخاطر.

وما أجمله من موقف من أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها عندما عاد نبينا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم من غار حراء وقال لها: زملوني زملوني.. فزملته.. وجبرت خاطره صلى الله عليه وسلم، وقالت له: والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

قلب على قارعة الدنيا!

فاطمة عبد المقصود العزب

تمر على أخبار متتابعة أو تصافح عيناك أحوالاً هنا وهناك، فترى نفسك تردد في ألم: ألم أكن أولى بهذا؟ ألم أحلم أن أكون هذا الذي تلتف حوله القلوب وترتفع بذكره الألسنة؟ لم فاتتني تلك الفرصة، ولمَ لم أرزق مثل هذا!

وفي لقطة مقابلة ينالك ما قد رجوت وأملت، وربما أتاك على غير موعد، فيهيج القلب ويعلو الصوت وترقص الكلمات طربًا.. قد فعلت وقد فزت وقد نلت..

أرأيت تلك الانفعالات ودويها في القلب.. ذلك الهم القابع يتوارى حينًا ويثور بلا موعد كلما سنحت له فرصة، وتلك الطبول التي تلاحقك وتزعج من حولها بفرح صاخب، أتراها تتركك سويًا مطمئن البال؟

لقد رأيت ذلك النموذج مرات عدة.. فرح شديد حين يجيء اختبار النعمة، وغم لا يبرح حين تخدشه البلوة، بل إننا لا تخلو أحوالنا من لحظات أسى ولحظات فرح قد تحول بيننا وبين حياة راضية مؤنسة.

إن أصل تلك الانفعالات ما غلب على النفوس من التعلق بالنعم الظاهرة القاصرة عن المعنى والغفلة عن نعم حقيقية هي أولى بالتطلع إليها والحرص على الظفر بها لما فيها من دفء للروح وسلامة للقلب المتبعثر.

أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُم

د.خير الله طالب

انهزم المسلمون -مع أنّهم صاروا لأوّل مرّة ثلاثة أضعاف جيش عدوهم- حين قال بعضهم: لن نُغلب اليوم من قلّة؛ فأدبروا إلا مائة! ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

التفاتة قلبٍ لدى بعض خيار المجاهدين إلى الأمور المادّية أنزلت بهم فاجعة؛ لأنَّ الله تعالى يُريد للقلب أن يكون سليمًا له وحده، لا يتعلّق ولا يثق إلّا به، ولا يعتمد ولا يتوكل إلّا عليه، يقوم بأمر الله في إعداد العدّة على أكمل وجه، ثم يُفلس من نفسه وسلاحه، ولا يرى شيئًا من جهده ولا عمله؛ لأنّه كلّه عطاء ربه ونعمته وفضله وتوفيقه. فإذا غفل قلبُ وليِّ الله عاجلَه مولاهُ -بقدر مكانته عنده- بما يوقظه، وأشهده بؤسَ الأسباب دون مسبّبها، وعجزَ القوّات دون مُوجدها، فأعاده إلى كمال عبوديته بصفاء تفويضه وكمال توكّله.

حالةٌ مخصوصةٌ للأصفياء المتلذِّذين بما كتب الله لهم من تأديباتٍ تُزكي قلوبهم فتوقظ عقولهم، حتى يلمحوا نعمةَ الله في كلّ ما ينزل بهم، فيشكروه على منعه كعطائه. وكلّما ارتقوا في درجات الولاية ومراتب الأعمال، واجتازوا عقبات الامتحان؛ حلّت بهم ابتلاءات أشد تمحيصًا وأكثر تطهيرًا، فمن ازداد لها شكرًا زاده بها رفعة، على خطى الأنبياء الأشدّ بلاءً عليهم صلوات الله وسلامه.

هيهات للغافلين أن يتصوّروا ذلك الحال، فضلاً عن أن يشهدوه في واقعهم. وما أكثر الناس ولو حرصت بشاكرين، لكنّها (قلّةٌ تنقذ الموقف)[1]، يشكّلون النواة الصامدة مع المصطفى ﷺ، يستعيد بها الجيشُ اجتماعه وقوّته وانتصاره. أفرادٌ يتوقف عليهم مصير أمة، ويتحوَّل بهم التاريخ من بعد الغربلة.

هل يا ترى أعجبتنا كثرتنا بما أسسنا من كيانات وجماعات وأحزاب، وبما أتيح لبعضها من وزارات وحكومات، وبما حقّقنا من منجزات وانتصارات، وبما اخترعنا من تحالفات، وما أثمرته من خبرات وصناعات، وبأموال قامت عليها مشروعات، أو ملايين تتابع المؤثّرين وتبدي إعجابها في القنوات والحسابات، وجموع عالية من شتّى الأديان تقف مع قضايانا وتؤازرها؟ كلّها لن تغني عنّا من الله شيئًا إذا خالفنا سننه، وخلطنا الحقّ بالباطل.

أحاطت بكثيرين -من بعد الربيع- حالةٌ من الصدمة والإحباط، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وأخذت ببعضهم نحو اليأس والانقطاع فولّوا مدبرين، وآخرين أورثتهم الشكوك، ومخذولون يخاتلون خفية إلى العدو الباطن؛ جاهلين أنّ الغلبة بالإيمان، وأنّ التفات قلوب أهله مدد للطغيان، «﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣]، حينها يمكن لمريد الفهم أن يدرك معنى (سنن التأييد) ومغزى ارتكازها على سبعةٍ من أعمال القلوب، لا نصر إلا بها: التوبة، والنيّة، والشكر، والدعاء، والتوكّل، والذكر، والمصابرة»[2].

أنصارُ الله وأولياؤه أوّل أسبابهم تصديقٌ بالوعد ويقينٌ بالحق وإرادةٌ للآخرة، وبذلٌ للمستطاع مهما ضعُف. ثم تتنزل عليهم السكينة بما يجدون من حلاوة الإيمان، فلا يحبّون إلّا لله، لا تعرف قلوبهم التعصّب، ولا عقولهم تأطير الحدود، ولا سلوكهم الفردية والاستئثار، تتكوّن منهم النواة الحامية للأمّة، المحتمية بالشورى، دون خضوع لتأثير الجماهير، يخشون ربّهم في الغيب والشهادة، يقولون الحقّ في الغضب والرضا، لا يبالون بفتح الأبواب وإغلاقها، ولا يختلف حالهم في فقر ولا غنى، ولا يلتفتون إلى قلّة ولا كثرة.

(١) عنوان فصل في كتاب: (المسوؤلية)، للمربي محمد أمين المصري رحمه الله.
(٢) ينظر: د. الطيب برغوث https://sunaniya.net

رواء

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com